



مناهج البحث اللغوي ومدارسه

إبراهيم محمد إبراهيم محمد عثمان

قسم اللغة العربية، جامعة عمر المختار

Doi: <https://doi.org/10.54172/a3fxrz27>

المستخلص : يهدف هذا البحث إلى استعراض مناهج البحث اللغوي المختلفة ومدارسها، وذلك في إطار فهم أهمية اللغة كميزة تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات. منذ العصور القديمة وحتى العصر الحديث، اتبع الباحثون توجهات وأساليب متعددة في دراسة اللغة، وتم تحديد حدود لكل منها للوصول إلى نتائج مرغوبة وحقائق موثوقة. تراكمت جهود العلماء على مر العصور لوضع قوانين للغة ورصد التغيرات التي تطرأ عليها عبر الزمن. تنوعت المناهج بين الوصفية والتاريخية والمقارنة والمعيارية والتقابلية، استنادًا إلى الأهداف المرجوة من قبل كل باحث. في العصر الحديث، برزت مدارس لسانية متنوعة من حيث المبادئ والأفكار والزمان والمكان. يسعى البحث إلى تقديم نظرة عامة حول هذه المناهج المختلفة واستعراض أبرز المدارس اللسانية وعلمائها. يتكون البحث من مقدمة وفصلين وخاتمة، وتم تناول مباحث مختلفة تتناول المناهج اللغوية ومدارس التحليل اللغوي في العصر الحديث. يختتم البحث بتلخيص النتائج الرئيسية وقائمة المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: اللغة، المدارس اللسانية، المناهج، البحث اللغوي، العصر الحديث

Linguistic Research Methodologies and Schools

Ibrahim Mohammed Ibrahim Mohammed Osman

Department of Arabic Language, Omar Al-Mukhtar University

Abstract: This research aims to review the different methodologies and linguistic schools of linguistic research, within the framework of understanding the importance of language as a distinguishing feature of humans from other creatures. Since ancient times until the modern era, researchers have followed various approaches and methods in studying language, and boundaries have been defined for each of them to achieve desired results and reliable facts. Over the ages, scientists' efforts have accumulated to establish language laws and monitor the changes that occur in it over time. The methodologies varied between descriptive, historical, comparative, standard, and generative, depending on the objectives desired by each researcher. In the modern era, diverse linguistic schools emerged in terms of principles, ideas, time, and place. The research seeks to provide an overview of these different methodologies and review the prominent linguistic schools and their scholars. The research consists of an introduction, two chapters, and a conclusion, covering various topics related to linguistic methodologies and schools of linguistic analysis in the modern era. The research concludes with summarizing the main findings, a list of sources, and references.

Keywords: Language, Linguistic schools, Methodologies, Linguistic research, Modern era

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وإمام المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. اللغة هي من أهم المميزات التي يتميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات؛ لذا أقبل الباحثون على دراستها منذ فجر التاريخ، واتخذوا في هذه الدراسات اتجاهات وطرقا متعددة، كانت في العهود القديمة مختلطة، ليست ذات دلالة واضحة، أما في العصر الحديث، فقد وضحت معالم هذه الاتجاهات، فتعددت المناهج التي يستخدمها الباحثون، ووضعوا لكل منها حدودا يستطيع الباحث من خلال الالتزام بها أن يصل إلى نتائج مرجوة، وحقائق يقينية.

ولقد تضافرت الجهود من العلماء على مر التاريخ لوضع القوانين التي تسيّر عليها اللغة، ورصد ما يعثرها من تغير عبر العصور، فتتوعدت المناهج بين الوصفي والتاريخي والمقارن والمعياري والتقابلي بحسب الهدف الذي يريد أن يصل إليه كل باحث. وكشفت الدراسات اللغوية في العصر الحديث عن علماء حملوا مشعلها، بعد أن استلموا الراية ممن قبلهم، وسلموها لمن جاء بعدهم؛ ليستكمل البناء الذي بدأه علماؤنا القدماء، كل عالم يضع في هذا الصرح العظيم لبنة، إلى أن أصبح في الوقت الحالي مكتمل البناء واضح المعالم والأركان. فظهرت مدارس لسانية متنوعة، تنوعت من حيث المبادئ والأفكار، وكذلك من حيث الزمان والمكان.

وفي هذا البحث حاولت أن أعرض لهذه المناهج المختلفة، وكذلك أردت أن أعرج على مبادئ وأفكار وعلماء أهم المدارس اللسانية، فوقع البحث في تمهيد وفصلين وخاتمة على النحو الآتي:

أما التمهيد فتناولت فيه التعريف بالمنهج، والفصل الأول كان عنوانه (مناهج الدرس اللغوي) تناولت فيه خمسة مباحث، المبحث الأول جاء عن المنهج المعياري، والثاني عن المنهج الوصفي، والثالث عن المنهج التاريخي، والرابع عن المنهج المقارن، والخامس عن المنهج التقابلي.

والفصل الثاني كان عنوانه (من مدارس التحليل اللغوي في العصر الحديث) واشتمل على تمهيد ومبحثين، أما التمهيد فكان عن دي سوسير (مؤسس علم اللغة الحديث) إذ عرضت لحياته وأهم أفكاره التي نادى بها. والمبحث الأول عن مدرسة براغ، فعرضت لنشأتها وأهم علمائها ومبادئها وأفكارها، والمبحث الثاني عن مدرسة كوبنهاجن، تعرضت لنشأتها وأهم علمائها ومبادئها وأفكارها، ولم يتسع البحث لأكثر من هاتين المدرستين، وسأعرض لبقية المدارس في بحوث قادمة إن شاء الله، ثم الخاتمة التي اشتملت على أهم النتائج، أخيرا ذيلت البحث بقائمة المصادر والمراجع.

قصدت من هذا العمل - بعد وجه الله تعالى - التيسير على طلاب العلم، فإن أصبت فبتوفيق من الله عز وجل، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، وحسبي خلوص النية لله عز وجل، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين. الباحث.

التمهيد ((تعريف المنهج))

أ - أولاً في اللغة: المنهج والمنهاج: هو الطريق الواضح والمنهج بتسكين الهاء هو الطريق المستقيم، يقول ابن منظور: طريق نهج: بين واضح وأنهج الطريق : وَضَحَ واستبان وصار نهجا بينا واضحا¹، وفي كلام العرب : إنه رجلٌ ينهج أي يربو من السمن ويلهث، و أنهجت الدابة: صارت كذلك، وضربه حتى أنهج أي انبسط، وقيل بكى، ونهج الثوب ونهج فهو نهج، وأنهج: بلي ولم يتشقق وأنهجه البلى فهو منهج، ويقول الخليل: طريق نهج: واسع واضح، وطرق نهجة، ونهج الأمر وأنهج، لغتان، أي وضح، ومنهج الطريق: وضحه، والمنهاج: الطريق الواضح².

وورد في المعجم الوسيط : "المنهج هو الخطة، ومنه منهاج الدراسة ومنهاج التعليم ونحوهما"³، وقد أجمعت معظم المعاجم على أن المنهج هو الطريقة أو الأسلوب ويستخدم هذا المصطلح أيضا للدلالة على طريقة البحث عن المعرفة والاستقصاء.

وكثيرا ما يوظف المنهج على أنه التيار أو المذهب أو المدرسة، بهدف الكشف عن الطريقة أو الأسلوب لتيار معين أو مذهب معين أو جماعة معينة، يقول أحمد مطلوب: "إن المعنى العام للمنهج هو الأسلوب الذي يقود إلى هدف معين في البحث والتأليف أو السلوك"⁴.

والمنهج: يعني "الطريقة أو مجموعة الإجراءات التي تتخذ للوصول إلى شيء محدد كأن نتخذ خطوات تحلل بها الكلمة صرفيا، ذلك أن المنهج والمنهاج يرد في العربية على معنى الطريق الواضح والمنهاج: الخطة المرسومة (محدثة) ومنه منهاج الدراسة أو منهاج التعليم ونحوهما... المنهج المنهاج، الجمع منهاج"⁵.

ب - ثانيا: في الاصطلاح: "وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة ... المنهج العلمي: خطة منظمة لعدة عمليات ذهنية أو حسية؛ بغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها"⁶، ويُقصد "بمنهاج البحث: الطرق التي

¹ انظر لسان العرب 382/2.

² العين 392/3.

³ المعجم الوسيط 957/2.

⁴ مقدمة في علم اللغة 175.

⁵ النظرية اللغوية في التراث العربي 20.

يسير عليها العلماء في علاج المسائل والتي يصلون بفضلها إلى ما يرمون إليه من أغراض⁷، ويقصد بها أيضا: "الأصول التي تتبع لدراسة أي جهاز من الأجهزة اللغوية".⁸

⁶ المعجم الوسيط 957/2.

⁷ علم اللغة 33.

⁸ اللغة بين المعيارية والوصفية 191.

الفصل الأول ((المناهج المعتمدة في الدرس اللغوي))

المناهج المعتمدة في الدرس اللغوي خمسة مناهج، وهي: المعياري، والوصفي، والمقارن، والتاريخي، والتقابلي، وسنعرض لها في المباحث الآتية:

المبحث الأول (المنهج المعياري)

ويُقصد به اتخاذ معايير وضوابط ثابتة لا يجوز الخروج عنها، فما يوافقها يعد صحيحاً، وما يخالفها يعد خطأً. وترجع نشأة هذا المنهج إلى الإغريق الذين نظروا إلى لغتهم بوصفها اللغة الإنسانية الأولى، ونظروا إلى اللغات الأخرى على أنها لغات برابرة، ومن ثم فقد رسموا صورة مثالية للغتهم من خلال بعض القواعد المنطقية والفلسفية مهملين التعقيد لكثير من الأمثلة اللغوية الفعلية، ربما لأنها تخالف ما رسموه من قواعد للغتهم، وقد تابعهم في هذا المنهج الرومان، كما تبعهم في ذلك العرب.

يلجأ إلى استعمال هذا المنهج بعض اللغويين التقليديين الذين يشتغلون غالباً في مجال التعليم، خصوصاً تعليم اللغات القومية التي ترتبط بموروث حضاري أو ديني يعمل أهلوه على الحفاظ عليه، ولذا فهو منهج المعلم وليس منهج العالم، فهذا المنهج لا يعمل على وصف السلوك اللغوي كما يجري، وإنما يفضل لنفسه مقعد القاضي الذي يراقب ويسمع لكي يرجع إلى قوانينه ليصدر حكمه.⁹

وقد اتخذ القدماء من لغة اليونانيين واللاتينيين (الرومان) نماذج مثالية تدرس من خلالها اللغة؛ لفهمها وتحليلها. ويعتمد هذا المنهج على عدة ركائز منها:

- 1- اللغة عندهم ظاهرة جامدة غير متطورة تعرف بالثبات؛ ومن ثم فهم ينكرون أي تغيير في اللغة؛ لكونه يمثل في رأيهم فساداً لها.
- 2- يهتم المعياريون بوضع قواعد صارمة تصف ما يجب في اللغة، وليس ما هو كائن بالفعل، وأي خروج على هذه القواعد يعد خطأً يجب التصدي له.
- 3- يُصدر المعياريون أحكاماً تقييمية للغة وتمثل هذه الأحكام المثل الأعلى والنموذج الذي يجب الالتزام به؛ لكونه يمثل الصواب اللغوي الذي يجب فرضه على المتكلمين.¹⁰

⁹ انظر محاضرات في علم اللغة العام 192.

¹⁰ من أسس علم اللغة 151-152.

- 4- كان مجال التطبيق عند المعيارين في معاقل التعليم والتدريس؛ ومن ثمَّ كانت أهدافهم تعليمية تربوية، ومبادئهم استنتاجية، وهذا يفسر وجود المنظومات النحوية في التراث الإغريقي والروماني والعربي.
- 5- اعتمد المعياريون على النماذج العليا في الأدب كمجال للتطبيق، سواء أكان شعرا أم نثرا؛ بهدف القراءة الصحيحة وكذلك الكتابة والأغراض التعليمية¹¹.
- 6- قصد المعياريون إنتاج أمثلة مصنوعة دون النظر للنطق الفعلي أو المعرفة الواقعية منشغلين فقط بتركيب معين، فكثيرا ما أنتجوا جملا نادرا ما توجد في اللغة المنطوقة بالفعل¹².
- 7- اعتمد المعياريون على اللغة المكتوبة أساسا للبحث، ويردون إليها كل ظواهر اللغة المتكلمة، ويندر أن نجد أيا منهم في تناوله للجزئيات يؤسس تتابعه على الملاحظة العلمية أو الاستقراء، بالإضافة إلي أنهم ركزوا على دراسة لغات قديمة لم تعد موجودة بالفعل¹³.
- 8- تهدف الدراسات المعيارية إلي تقديم قواعد تعصم اللسان أو القلم من الخطأ واللعن، وتفيده بمستوى لغوي محدد يجب الحفاظ عليه، ويمتنع الخروج عنه، وترسم له حدودا لما ينبغي أن يقوله، وهذه الحدود مستخلصة من كتب القواعد وأقوال اللغويين¹⁴.
- وظل هذا المنهج مسيطرا على اتجاهات البحث اللغوي في الشرق والغرب ولم تتزعزع مكانته إلا بعد ظهور المناهج اللغوية وهذا لا يمنع كونه المنهج المعتمد في مجال التعليم والتلقين حتى الآن في أكثر بلاد العالم، وهذه السمات المنهجية عرفت في الدراسات النحوية للغة العربية إذ حددوا قواعد الخطأ والصواب في اللغة فوضعوا مؤلفات لتقويم اللسان وما يخالف ذلك المنهج لا يؤخذ به¹⁵.
- وقد أدّى اتباع هذا المنهج عند علماء العربية إلى إيقاف البحث اللغوي الذي يساير اللغة في تطورها، فقد أوقفوا الاستشهاد باللغة عند منتصف القرن الثاني الهجري في البادية، وعند القرن الرابع الهجري في المدن (الحضر) وأخذوا اللغة عن قبائل، ولم يأخذوها من قبائل أخرى. وحكموا على ما جاء بعد هذه الفترة المحددة، وعلى ما جاء على ألسنة القبائل التي لم يأخذوا عنها اللغة بفساد اللسان وباللعن في اللغة¹⁶.

المبحث الثاني (المنهج الوصفي)

¹¹ الموجز في تاريخ علم اللغة 130.

¹² الموجز في تاريخ علم اللغة 156.

¹³ مدخل إلى علم اللغة 135.

¹⁴ مدخل إلى علم اللغة 136.

¹⁵ انظر فصول في الدرس اللغوي 127-128.

¹⁶ انظر محاضرات في علم اللغة العام 194.

ونعني بالمنهج الوصفي: وصف لغة معينة في مكان محدد وزمان محدد وصفا دقيقا أميناً لا دخل للباحث فيه، فيصف هذه اللغة في مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية أو في إحدى هذه المستويات.

وظهرت إرهابات هذا المنهج الوصفي في فترة تاريخية مبكرة تسبق الميلاد بقرنين على الأقل، وذلك من خلال وصف اللغويين الهنود للغة السنسكريتية، فقد جاء وصفهم منطلقاً من اللغة ومنتهياً إلى نتائج لغوية خالصة تصف بدقة كل جوانب هذه اللغة. وقد استفاد بعض اللغويين في القرن الثامن عشر من هذه الوجهة الوصفية في مقارنة اللغات الأوروبية باللغة السنسكريتية، ولما ازداد الاهتمام باللغة المنطوقة في القرن التاسع عشر أدى هذا الاهتمام إلى ظهور علم اللغة الوصفي كعلم يعطي اهتماماً كبيراً للغات الحية المتكلمة ويقلل من الاهتمام بالشواهد المكتوبة.

غير أن الميلاد الشرعي لهذا العلم ظل ينتظر إلى ما بعد نشر كتاب دي سوسير (محاضرات في علم اللغة)، وفي هذا الكتاب تحددت ملامح هذا المنهج، وقد أثمر ذلك اتجاه الدراسات الوصفية في أمريكا نحو اكتشاف اللغات المجهولة من المجموعة الهندية الأمريكية مع الاهتمام بالنزول إلى حقل التجربة، واتجه الأوروبيون إلى دراسة اللهجات التي ظلت تعاني زماناً طويلاً من الإهمال والتجاهل.

ولقد أخذ دي سوسير على بعض الدراسات أنها أهملت دراسة اللغة من واقع النشاط الفعلي لمتكلميها، كما أخذ عليهم إدخال العوامل التاريخية في أحكامهم التي تتصل باللغة المعاصرة وأخذ على البحوث المقارنة أنها لم تقدم إلا مجموعة من الفروض ورأى أن اللغة يمكن مقارنتها بدراسة من دراستين:-

1- الدراسة (الوصفية): وتعني: وصف حالة اللغة معينة في فترة زمنية محدودة.

2- الدراسة (التاريخية): وتعني: وصف التطور التاريخي للغة معينة عبر الزمن.¹⁷

وقد اعتمد المنهج الوصفي على اللغة المنطوقة؛ لكونه يهتم بوصف الظواهر اللغوية كما هي موجودة بالفعل وليس كما ينبغي أن تكون؛ ومن ثَمَّ عمد إلى وصف لغات حية. ولا يعني ذلك إهماله للغة المكتوبة، وإنما الاهتمام بالمنطوق كان أكبر وأوسع من الاهتمام بالمكتوب¹⁸. وبالرغم من انتساب المنهج الوصفي إلى (دي سوسير) وهو من علماء القرن العشرين، إلا أن العرب وقبلهم الهنود قد انتهجوا هذا المنهج؛ إذ اعتمد العرب في دراسة لغتهم على الراوية والمشافهة من ذوي الثقة والأمانة، وحددوا البيئة التي يدرسون لغتها، وقصروها على بوادي نجد وتهامة والحجاز، وإن كان يؤخذ عليهم أنهم لم يفرقوا في جمعهم بين (اللغة الفصحى) المشتركة بين القبائل و (اللهجات) الخاصة بكل قبيلة على حدة. وكذلك تحديدهم فترة زمنية محددة كما ذكرنا من قبل، وكذلك خلطهم بين المستويات اللغوية المختلفة (الشعر أو النثر أو اللهجات الخاصة) فخلطوا بين شواهد الشعر والنثر

¹⁷ انظر محاضرات في علم اللغة العام، 180-181.

¹⁸ انظر مدخل إلى علم اللغة 135-136.

في استنباطهم قواعد عامة تشملها معا، فهذا مستوى من اللغة وذاك مستوى آخر ولكل خصائصه التي تميزه عن صاحبه.¹⁹

ويمكن حصر أسس المنهج الوصفي فيما يلي:²⁰

1- يعمد أنصار هذا المنهج إلى دراسة اللغة المنطوقة، لكونها أصدق في الوصف والوقوف على خصائصها وبخاصة الصوتية منها. كما لا يهتمون اللغة المكتوبة، وإن كان اهتمامهم بالمنطوقة أوسع وأعم.

2- تحديد فترة زمنية للظاهرة المدروسة، ويفضل أن تكون قصيرة؛ لأن طول الفترة الزمنية لا يخدم الدراسة لتعرض اللغة إلى أشكال مختلفة من التغير عبر الأزمان الطويلة، ومن ذلك بحث القدماء في الألفاظ الإسلامية مثل: (مؤمن، فاسق، كافر، صلاة، حج، إلخ)، والدلالات التي اكتسبتها هذه الألفاظ في ظل الإسلام.

3- تحديد بيئة معينة أو مكان محدد لدراسة الظاهرة حتى لا تختلط اللغات أو لهجات اللغة الواحدة بعضها ببعض؛ ومن ثمَّ عرف عندهم مصطلح (الراوي اللغوي) الممثل لبيئته الكلامية وجغرافيتها، ساحلية كانت أو جبلية. كما كان ممثلاً لبيئته الاجتماعية وطبيعته التي ينتمي إليها²¹، والذي كان ممثلاً للغته الطبيعية والتلقائية دون أي مؤثر أجنبي. كما اتسم منهج القدماء بالتقريرية التي هي سمة من سمات المنهج الوصفي عند المحدثين، ومن ذلك قولهم: هكذا قيلت، وهكذا سمعت، وكلمة الكسائي في هذا الشأن مشهورة حين سُئل في مجلس يونس عن قولهم: (لأضربن أيهم يقوم؛ لم لا يقال: لأضربن أيهم؟ فقال: هكذا خُلقت)²²

ولم تقتصر دراسات القدماء للغة على مستوى واحد، وإنما شملت ما يدعو إليه المنهج الحديث؛ فدرسوا الأصوات والصرف والنحو والدلالة، وإن جاءت مختلطة فيما بينها في بعض منها.

4- تحديد مستوى لغوي معين يدرسه دون الخلط بينه وبين غيره من المستويات؛ حتى لا يؤدي إلى نتائج غير صحيحة، والمستويات اللغوية هي: الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية.

5- وصف الظواهر اللغوية كما هي موجودة بالفعل، بغض النظر عن الخطأ فيها والصواب؛ لأنهم يصفون الظواهر وصفا علميا دقيقا أميناً؛ ومن ثم فهم لا يقدمون معايير تُفرض على المتكلمين؛ لعدم ملائمة ذلك مع المنهج الوصفي ويمكن اعتبار الأطالس اللغوية نموذجاً للدراسة الوصفية عند المحدثين، فهي لا تعرض علينا سوى الواقع اللغوي مصنف دون تدخل من الباحث لتفسير ظاهرة، أو تحليل لاتجاه لغوي هنا أو هناك. وغالبا ما تنصب هذه الدراسة الوصفية على اللغات واللهجات المعاصرة، وإن كان بعض العلماء قد قاموا بمحاولات

¹⁹ انظر مدخل إلى علم اللغة 140.

²⁰ انظر فصول في الدرس اللغوي 130 - 132.

²¹ مناهج البحث في اللغة والمعاجم 16- 18.

²² الصاحبى في فقه اللغة 196.

لدراسة اللغة دراسة وصفية في زمن معين في الماضي، فأية دراسة صوتية أو صرفية أو تركيبية أو دلالية لإحدى اللهجات القديمة أو الحديثة، تعد دراسة وصفية²³.

6- يهدف المنهج الوصفي إلى:

أ- رصد الظواهر اللغوية ووصفها وصفا كاملا بما يتناسب مع اللغة المنقوطة، حتى ولو كانت شاذة في القاعدة فالأصل في المسموع وليس في المقيس.

ب- الاستدراك على القدماء بما لم يذكروه من مواد معينة من خلال ما تصل إليه الدراسة الوصفية من نتائج؛ وذلك بناء على دراسات كوصف لغة الشعر والنثر والأرجاز؛ فتظهر ألفاظ لم يذكرها المعجميون في معاجمهم.²⁴

7- يجب على الباحث الوصفي استبعاد الأحكام الجمالية أو التقييمية في اللغة، وإنما عليه أن يبحثها من حيث كونها أصواتاً ومفرداتٍ و تراكيباً فيدرسها دراسة مجردة بغض النظر عن قيمتها أو مكانتها فيصل إلى قواعد وقوانين تتسم بالكلية؛ ومن ثمّ يمكن تطبيقها على أكثر من لغة.

المبحث الثالث (المنهج التاريخي)

ونعني به دراسة اللغة في مكان معين وذلك عبر فترات زمنية متعاقبة والوقوف على مدى التغير والتطور في هذه اللغة عبر الزمن في مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية. ففي سنة 1867م أخرج اللغوي الأمريكي وتي كتابه "اللغة ودراسة اللغة"، وأعقب ذلك في عام 1874م بكتاب آخر هو "حياة اللغة ونموها"، وفي سنة 1880م ظهر كتاب جديد للغوي، آخر هو هيرمان بول بعنوان "أسس التاريخ اللغوي" وهذه الكتب الثلاثة تعد من العلامات البارزة في تأصيل المنهج التاريخي، ولاسيما كتاب هيرمان بول الذي يعد عملاً نموذجياً فيما يختص بطرق البحث في علم اللغة التاريخي، وفي هذا الكتاب نرى توضيحاً بواسطة الأمثلة لعلمية التطور اللغوي التي كشفت عنها الدراسات الهندية الأوروبية.

وينطلق البحث في هذا المجال من منطلق أن اللغات جميعاً في حركة مستمرة عبر الزمن، وهي من خلال هذه الحركة تتغير، والتغير يصيب اللغة في كل مستوياتها ومن المنظور السابق يتحدد مجال علم اللغة التاريخي في رصد ما يصيب لغة بعينها أو مجموعة من اللغات خلال عمرها الزمني الطويل، وقد امتدت طموحات هذا العلم قديماً إلى محاولة الوصول إلى اللغة الأم، وبعد أن اكتسب تحديده المنهجي أصبح مجاله محدوداً في محاولة رصد ما أصاب لغة بعينها من تطور على امتداد التاريخ.²⁵

²³ المدخل إلى علم اللغة 183.

²⁴ مناهج البحث اللغوي 29.

²⁵ انظر محاضرات في علم اللغة العام 184 - 185.

ويعتمد المنهج التاريخي على دراسة اللغة من حيث كونها ظاهرة متغيرة لا تعرف الثبات، إنما تتطور وتتغير بشكل مستمر في جميع مستوياتها (الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية)، محاولاً رصد الحركة العامة لهذا التغيير، مبيناً ضوابطه²⁶ كما يعتمد المنهج التاريخي على اختيار بيئة مكانية معينة لرصد التغيير اللغوي في ظاهرة معينة، ومستوى لغوي بعينه في لغة هذه البيئة، متتبعا هذا التغيير عبر فترات زمنية مختلفة كأن يدرس دلالة كلمة (المغفرة) مثلاً في العصر الجاهلي، ثم يتبعه بالوقوف على دلالتها في العصر الإسلامي، ثم الأموي، فالعباسي؛ وذلك باستخدام المنهج الوصفي الذي يصف الدلالة ويقف على خصائصها في كل عصر من هذه العصور، ثم يتبعه المنهج التاريخي لرصد ظواهر التغيير في دلالة الكلمة عبر تلك العصور.²⁷

وقد عرف هذا البحث عند المحدثين بمصطلح (Etymology)²⁸ وهو علم تطور الكلمات من حيث استعمالها ومعرفتها تاريخياً، وذلك من خلال دراسة النص محاولاً الغوص في ألفاظها ومعرفتها أعماقها؛ ليصل إلى أقدمها؛ حتى يمكنه أن يرى استخدام الشاعر مثلاً للكلمة؛ بل يتجاوز ذلك إلى البحث في العائلات المتشابهة من اللغات لملاحقة معنى الكلمة وتطورها التاريخي.

ولا يُكتفى في هذا الدرس بالاعتماد على المعاجم فحسب؛ بل يدرس النصوص في أقدم مظاهرها. وقد أدت هذه الدراسة عند المحدثين إلى دراسة النصوص التراثية القديمة وشرحها وتحقيقها؛ وذلك من خلال الرجوع إلى أقدم المصادر اللغوية المعنية على ذلك، وقد استدلو على نجاح هذه الدراسة باكتشافهم أن العربية الشمالية والعربية الجنوبية واللغات السامية في الحبشة؛ باعتبارها تكون الفرع الجنوبي من أسرة اللغات السامية؛ لأن هذه اللغات أكثر تشابهاً، وتتشترك في صفات أكثر من الصفات التي تشترك فيها مع باقي اللغات السامية.²⁹

وعلى الرغم من أن العرب القدماء لم يدرسوا الظواهر اللغوية دراسة تاريخية، إلا أنهم نظروا إلى اللغة على أنها ظاهرة متطورة متجددة، وذلك التطور يحدث لمتابعة كل ما هو جديد، فرصدوا الدخيل في العربية من الألفاظ الأعجمية، كما وقفوا على ما يعرف بالاشتقاق والنحت والقياس، وكلها روافد تنثري العربية وتنمي ألفاظها وتجدد أساليبها.

ومن أوائل الذين وقفوا على هذا وعلموه ابن جني (ت 392هـ) في كتابه "الخصائص"، والثعالبي (ت 430هـ) في كتابه "فقه اللغة وسر العربية"³⁰. هذا بالإضافة إلى تغير اللغة الحادث نتيجة انتقالها من جيل إلى جيل، أو إلى عوامل اجتماعية ونفسية وأدبية أو الاحتكاك باللغة المجاورة.³¹ فهناك مثلاً ألفاظ ماتت واندثرت لعدم تداولها

²⁶ انظر من أسس علم اللغة 253.

²⁷ انظر مدخل إلى علم اللغة 148، وفصول في الدرس اللغوي 132.

²⁸ مناهج البحث اللغوي 109.

²⁹ انظر علم اللغة العربية 120 - 121، وفصول في الدرس اللغوي بين القدماء والمحدثين 133.

³⁰ انظر فقه اللغة في الكتب العربية 177 - 178.

³¹ انظر مناهج البحث في اللغة والمعاجم 32.

بعد العصر الجاهلي، من ذلك (المرباع والنشيطه والفضول). كما أن هناك ألفاظا ولدت في ظل الإسلام بدلالاتها الجديدة ومن ذلك (الصلاة ... إلخ) فكان معناها الصلو والتابع، فأخذت دلالة جديدة هي المعرفة بأداء فريضة معينة تقربا إلى الله، ومثلها الإيمان والكفر والزكاة والحج والنفاق.³²

وكما هو معلوم أن علماء اللغة المحدثين قد رفضوا الدراسة التاريخية والمقارنة التي سادت البحث اللغوي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والتي كانت مرتبطة بمنهج العلوم الطبيعية ولاسيما نظرية داروين في النشوء والارتقاء، حيث صنفوا اللغة إلى أنواع وفصائل مثل كل الكائنات الحية³³، ودعوا إلى الدراسة الوصفية لملاءمتها ومتطلبات البحث العلمي وكان ذلك لأمر:³⁴

أولها: أن ما يجب أن يشغل عالم اللغة هو كيفية الاستفادة من نتائج علم اللغة النظري في المجالات العلمية؛ أو ما يعرف بعلم اللغة التطبيقي؛ لكون الدراسة التاريخية غير مجدية في نظرهم.

ثانيها: أن الدراسة التاريخية لا تتناسب مع خطوات المنهج العلمي؛ ومن ثم لا يمكن تطبيقه عليها لكونها غير قابلة للتجريب³⁵.

ثالثها: البحث التاريخي يعتمد على المكتوب والمدون وليس المنطوق؛ لكون اللغة المكتوبة أوثق وأثبت في البحث. كما أن وسائل تسجيل المنطوق لم تكتشف إلا حديثا؛ ولذلك يجب على الباحث التاريخي أن يكون محتاطا ويغلب الشك على اليقين في أغلب الأحيان، ويدعم أقواله بأراء السابقين، كما يزود معارفه بثقافة المنطوق في دراسة ميكانيكية النطق والسمع.³⁶

ومن الجدير بالذكر التنبيه إلى أن هذه المآخذ تختلف من لغة إلى أخرى، فالتغير الذي طرأ على الإنجليزية السكسونية يعد شديدا قياسا بالإنجليزية المعاصرة، على حين تكون حركة التغير للعربية الفصحى في العصر الجاهلي ومقارنتها بالفصحى الحديثة أقل من مثيلاتها؛ وذلك لوجود القرآن الكريم الذي حفظ اللغة الفصحى بمفرداتها وتراكيبها ودلالاتها منطوقة ومكتوبة؛ ساعد ذلك على استقرار العربية وعدم تغييرها إلا بالقدر القليل.³⁷

وأخيرا يمكن وصف الدراسة التاريخية بأنها تتميز بفاعلية مستمرة؛ وذلك لخضوعها للتغير عبر الزمان والأمكنة، وهذه سمة فطرية في اللغات ترجع لعوامل تاريخية مختلفة، إضافة إلى أن هذا التغير يحدث في كل الاتجاهات، ولكن ليس على مستوى واحد أو طبقا لقوانين ثابتة³⁸ ومن ثم علينا استثمار نتائج الدراسة التاريخية

³² انظر الظواهر الدلالية والمعجمية عند الدكتورة بنت الشاطي 248، وفصول في الدرس اللغوي بين القدماء والمحدثين 134.

³³ انظر مدارس اللسانيات 23 - 24.

³⁴ انظر فصول في الدرس اللغوي بين القدماء والمحدثين 134 - 135.

³⁵ انظر مدخل إلى علم اللغة 148.

³⁶ انظر مدخل إلى علم اللغة 150.

³⁷ انظر مدخل إلى علم اللغة 150.

³⁸ انظر المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي 197 - 198.

في جلاء الغموض عما يكتشف من وثائق لغوية مدونة خلال العصور القديمة، ولا سيما أنها كانت تخضع للأحكام الفرضية غير اليقينية.³⁹

بين المنهجين التاريخي والوصفي:

تلخص العلاقة بين المنهجين عبارة مشهورة تقول: "إن كل تاريخ يشتمل بالضرورة على الوصف، والعكس ليس صحيحاً" وتوضح هذه العبارة أن من يرصد اللغة عبر فترات أو مراحل زمنية معينة عليه بالضرورة أن يعتمد على وصف مستقل لكل مرحلة أولاً، ثم يأخذ بعد ذلك في استخلاص ما طرأ على اللغة من تطور، أما من يُعمل المنهج الوصفي في لغة من اللغات فليس مُطالباً بمعرفة شيء على الإطلاق عن تاريخ هذه اللغة.

فالوظيفة الأولى لعلم اللغة الوصفي هي أن يصف، ولعلم اللغة التاريخي هي أن يعرض التغيرات اللغوية عبر الزمن، وكمال المنهج التاريخي ودقته لا يتحققان إلا إذا اعتمد على الوصف الدقيق القائم على الاستقراء المستوعب لكل أمثلة الظاهرة اللغوية موضع الدراسة. أما الدارس للغة بحسب المنهج الوصفي الذي يسمح لمعلوماته التاريخية أن تؤثر على دراسته الوصفية فلا بد أن يفسد ويشوه الحقائق التي يتوصل إليها.⁴⁰

المبحث الرابع (المنهج المقارن)

المنهج المقارن نشأ بناء على افتراض أن لغات العالم عبارة عن فصائل لغوية، وكل فصيلة تشعبت إلى عدة لغات متفرعة عنها، وعالم اللغة من خلال هذا المنهج يقارن بين لغتين أو أكثر في فصيلة لغوية واحدة بهدف رصد التشابهات بين هذه اللغات؛ لإعادة بناء اللغة الأم التي تشعبت عنها هذه اللغات، وهذه اللغة الأم تُعتبر لغة افتراضية يحاول عالم اللغة من خلال هذا المنهج إعادة بنائها.

بدأ هذا العلم في بداياته العمل من خلال منهج بسيط يعتمد على الحصول على مجموعة من أقدم الكلمات لكل فرع من فروع الهندية الأوروبية ثم وضعها بعضها بجانب بعض، ووصف ما بينها من تشابهات واختلافات، ثم استخلاص الأشياء المشتركة ووضعها في قائمة واحدة على أنها الصيغة المحتملة للغة الأم بالنسبة للغات اللاتينية واليونانية والسنسكريتية والسلافية القديمة، والكلتية القديمة، تلك اللغات التي قرأ في وعيهم من قبل أن بينها تشابهاً وقرابة، أي أنهم انطلقوا من هذه الصلات والتشابهات اللغوية إلى محاولة ربط هذه اللغات بلغة أم واحدة، مع محاولة تصور شكل هذه اللغة، وامتدت هذه البحوث فيما بعد لتشمل اللغات السامية مثل العربية والعبرية والأكدية... إلخ.

إن من أعظم ثمرات هذا العلم تلك التصنيفات التي تقسم اللغات إلى فصائل بحيث أصبح من المتيسر الآن على الباحثين أن ينطلقوا بالبحوث المقارنة إلى أفاق أرحب. إن البحث المقارن الآن أصبح يشمل كل دراسة

³⁹ انظر فصول في الدرس اللغوي بين القدماء والمحدثين 132-135.

⁴⁰ انظر محاضرات في علم اللغة العام 186-187.

تبحث تفسير بعض الظواهر اللغوية في لغة معينة في ضوء تشابهها مع ظواهر لغوية مماثلة في لغة أخرى تشاركها نفس الأصل اللغوي وهي بهذا تسد بعض الثغرات التي تظهر في طريق البحث التاريخي.⁴¹

ومن المعروف أن اللغات تنتمي إلى أصول وعائلات تتفرع عنها، فإذا قام الباحث بدراسة أي من الظواهر الصوتية، والصرفية والنحوية والدلالية، بين لغتين تنتميان إلى أسرة لغوية واحدة أو فرع من تلك الأسرة؛ كان مقارنا. إذن المنهج المقارن يعني: "المنهج الذي يقوم على البحث في لغتين أو أكثر بالكشف عن الأصول المشتركة بينهما"⁴² مثل "العربية والعبرية" أو "العربية والآشورية" فكلتا المجموعتين ترجعان إلى أصل واحد يجمعهما؛ وهو ما يعرف بالأصل السامي أو اللغات السامية، وهي إحدى فروع الأسرة (الأفريقية الآسيوية)، وتهدف الدراسة المقارنة إلى:⁴³

1- إعادة بناء الأصل المشترك بين (اللغة الأم) التي تنتمي إليها اللغتان المدروستان، وهذا الأصل ليس موجود في الواقع إنما هو من اختراع اللغويين وتصورهم.

2- الوقوف على التغيرات اللغوية التي تحدث لأي من اللغتين المدروستين عبر الزمن.

3- قد يكون المراد من هذه الدراسة الوقوف على مظاهر الاتفاق والاختلاف بين اللغتين المدروستين في شكلهما الحديث.

4- يمكن الاستفادة من نتائج الدراسة المقارنة في تعلم اللغات المختلفة وتعليمها بطريقة ميسرة.⁴⁴

5- استقصاء جوانب المقارنة بين اللغتين المدروستين صوتيا وصرفيا ونحويا ومعجميا؛ ومن ثمّ أمكن الوصول إلى درجات الاختلاف التي أدت إلى انشعاب لغة من أخرى.

6- يمكن تحديد درجة علاقة الماضي بالحاضر من الفرعين اللغويين وهي دراسة تطبيقية تتعرض للصواب والخطأ، وتعتمد على استنتاجات اللغوي وفهمه الدقيق.⁴⁵

7- وأخيرا تهدف هذه الدراسة إلى تأصيل المواد اللغوية في المعاجم، على نحو ما أنجزه الأوروبيون مثل معجم المترادفات في اللغة الهندية الأوروبية الذي صنّفه (بُك) Buck طبقا للمعاني.⁴⁶

ومما لاشك فيه أن العرب القدماء لم يدرسوا لغتهم دراسة مقارنه؛ لاعتقادهم الشائع بأن العربية من أشرف اللغات وأفضلها؛ وذلك لكونها لغة القرآن الكريم، إلا أننا لا نعدم بعض الإشارات التي جاءت عرضا في

⁴¹ انظر محاضرات في علم اللغة العام 189-190.

⁴² مناهج البحث في اللغة والمعاجم 44.

⁴³ انظر رفضول في الدرس اللغوي 136 - 142.

⁴⁴ انظر مدخل إلى علم اللغة 151.

⁴⁵ انظر مناهج البحث في اللغة والمعاجم 47.

⁴⁶ انظر العربية وعلم اللغة الحديث 99.

مؤلفاتهم تشير إلى هذا النوع من الدراسة وإن لم تكن بالمعنى العلمي الذي عُرفت به حديثاً، ومن ذلك ملاحظات الخليل بن أحمد (ت 175 - 176هـ) لما قارن بين العربية والكنعانية وذكر أنهما متضارعتان⁴⁷، كما عرّف أبو عبيد القاسم بن سلام (ت 224 هـ) اللغة السريانية، وأداة التعريف فيها وهي الفتحة الطويلة في أواخر كلماتها. كذلك قارن الثعالبي⁴⁸ (ت 430هـ) بين العربية وغيرها من اللغات الفارسية واليونانية، وإن كان ذلك يعد من الدراسة التقابلية؛ لكون اللغتين المدرستين لا تنتميان إلى أسرة لغوية واحدة. وكذلك التفت السهيلي إلى الشبه بين العربية والسريانية فيقول: "وكثيراً ما يقع الاتفاق بين السرياني والعربي، أو يقاربه في اللفظة".⁴⁹

وقد ذكر د. أحمد مختار عمر بعض نحاة عرب الأندلس الذين عُرفوا في (القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي) مبيناً جهودهم في الدراسات المقارنة بين العربية والعبرية، ومن هؤلاء (ابن بارون) و(جودة بن قريش) اللذان صاغا النحو العبري على نهج النحو العربي في تقسيم أبوابه وأسماء مؤلفاته.

وأما (ابن بارون) فقد ألف كتاباً في نهاية القرن الحادي عشر بعنوان "الموازنة بين اللغة العبرية والعربية"، وقد خصص الكتاب للدراسة المقارنة بين اللغتين من جانبي اللغة والنحو، واهتم ببيان أوجه الشبه والاختلاف. والكتاب مقسم إلى قسمين: فالقسم الأول مخصص للنحو المقارن. والقسم الثاني يضم معجماً مرتباً ألفبائياً لجذور الكلمات الواردة في الكتاب المقدس والتي لها مقابل عربي وتبعاً لعهد رتب (ابن بارون) القسم المعجمي (التالي لقسم النحو) ألفبائياً.⁵⁰

وقد ذكر (ابن بارون) أوجه التشابه بين اللغتين (العبرية والعربية) محدداً إياها في النقاط الآتية:

1- التشابه في الخط واللفظ والمعنى.

2- التشابه نتيجة لتعاور الحروف المتشابهة المخارج.

3- التشابه نتيجة لتعاور الحروف المتجاورة.

4- التشابه نتيجة التصحيف.⁵¹

وقد انتهت دراسة (ابن بارون) إلى نتيجة مجملها أن "العربية والعبرية والسريانية" متقاربات الاشتقاق والتصريف والألفاظ؛ وذلك كقرب مزاج أهلها ولقربهم في الإقليم⁵²، وهذان العاملان المذكوران هما ما عُرفا عند

⁴⁷ انظر العين 205/1.

⁴⁸ انظر فقه اللغة في الكتب العربية 178.

⁴⁹ المدخل إلى علم اللغة 202.

⁵⁰ انظر البحث اللغوي عند العرب 333 - 334.

⁵¹ انظر البحث اللغوي عند العرب 333 - 334.

⁵² انظر البحث اللغوي عند العرب 235.

المحدثين بـ(التأثير الثقافي) و(التأثير الجغرافي)⁵³، وإن كان لم يُلتفت إلى مفهوم السلالات وإرجاع اللغات الثلاثة إلى لغة أم تجمعها.

أما "جودة بن قريش" فكان أسبق من (ابن بارون) بنحو قرن، إذ وضع كتابا في (القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي) درس فيه المقارنة بين العربية والآرامية والعبرية؛ وذلك بلغة عربية، وقسمه إلى ثلاثة أقسام: قسمٌ عالٍ فيه العلاقة بين العبرية والآرامية، وقسمٌ عالٍ فيه العلاقة بين العربية والعبرية، وشبه تلك العلاقة بأغصان الشجرة الواحدة أو عروق الجد الواحد وبين أن العربية والآرامية ليستا أجنبيتين. كما ذكر أن العربية والعبرية نتجتا عن أصل واحد وتفرعتا نتيجة الخروج إلى أماكن مختلفة والاختلاط بلغات أخرى، والاقتراض منها. وأصدر حكمه على اللغات الثلاثة بقوله: "العبرية والآرامية والعربية قد صيغت في الطبيعة بطريقة واحدة".⁵⁴

أما الدراسات المقارنة عند المحدثين فقد عُرفت على يد السير "وليم جونز" (174 - 1794م) الذي كان يعمل قاضيا بمقاطعة البنغال بالهند؛ فقد اكتشف السنسكريتية وتوصل إلى أوجه الشبه بينها وبين كثير من اللغات الأوروبية مما جعله يحكم بأن السنسكريتية وكثير من اللغات الأوروبية تنتمي إلى أسرة واحدة أسماها بالأسرة (الهندية الأوروبية)، وذلك من خلال الدراسات التي قدمها عن العلاقات القوية بين السنسكريتية والفارسية القديمة، وبين اللاتينية والجرمانية والكلتية والتي تُعد بمثابة الريادة للمنهج المقارن الذي أخذ يحتل عالم الدراسات اللغوية طوال المائة العام التالية أو أكثر، وبالرغم مما قام به جونز من دراسات، إلا أنه لم يصل إلى المقارنات اللغوية وتطبيقها بمنهجية علمية، وإن كان قد هيا لظهور هذا المنهج.

ثم جاء فرانز بوب (1791 - 1867م) الذي يعد مؤسس النحو المقارن وكان له الفضل في كون اللسانيات صارت علما معرفيا يتسم بالنظامية والاستقلال، حين أخرج بحثه الخاص بتصنيف الأفعال في اللغات السنسكريتية والإغريقية واللاتينية والإيرانية والجرمانية. كما كان (بوب) أول من أكد أن قضية الروابط المتبادلة بين اللغات الهندية الأوروبية يمكن أن تصبح موضوعا لدراسات خاصة، ثم عاد بوب مرة أخرى سنة 1833م ليقدم بحثه المستفيض الخاص بالنحو المقارن للغات الهندية الأوروبية.

وجاء "راسك" (1787 - 1832م) الذي أوضح أن الكلمات في اللغات الجرمانية ذات قرابة شكلية منظمة بكلمات اللغات الهندية الأوروبية من الناحية الصوتية، وكان "راسك" معاصرا لـ"بوب"، إلا أن راسك لم ينل شهرة (بوب)؛ وذلك لأن راسك دعا إلى تطبيق المعايير التاريخية في البحث اللساني؛ ومن ثمَّ عُدَّ عند الكثيرين مؤسس اللسانيات التاريخية⁵⁵

⁵³ انظر مدخل إلى علم اللغة 153.

⁵⁴ البحث اللغوي عند العرب 236.

⁵⁵ انظر اتجاهات البحث اللساني 40 - 49، ومحاضرات في علم اللغة العام 188-189.

ثم ظهر (يعقوب جريم) (1785 - 1863م) الذي اعتمد على الاستقراء مقاربا الخصائص النحوية لمجموعة اللغات الجرمانية كلها: (القوطية والألمانية والهولندية والإنجليزية والفريزية واللغات الإسكندنافية) وذلك في عام 1819م في كتابه (النحو الألماني) والذي أضاف في طبعته الثانية مقارنة بين الصوامت الجرمانية والصوامت المناظرة لها في اللغات الهندية الأوربية الأخرى، وأرسى فكرة وجود قواعد ثابتة تحكم هذه العلاقات (وهو ما يعرف في اللسانيات باسم قانون جريم)⁵⁶.

واستمرت البحوث المقارنة بعد ذلك على يد سليتشتر وكارل برجمان ودلبروك وغيرهم، فتوصلوا إلى التصنيف السلالي للغات، وهو الذي يقسمها إلى ثلاث أسر كبيرة "هندية أوروبية"، و"إفريقية أسيوية"، و"طورانية"⁵⁷، وكل أسرة منها تتفرع إلى فروع أصغر منها إلا أن هناك رابطا يجمعها هو اتفاقها في البنية والشكل.⁵⁸

وقد حظيت الأسرة السامية - وهي من العائلة الإفريقية الأسيوية - باهتمام علماء اللغة الغربيين ولاسيما في أوروبا؛ إذ قدموا دراسات مقارنة لنحو اللغات السامية، والذي ساعدهم على ذلك تمكنهم من تعلم أكثر من لغة من تلك الأسرة، ومن أشهر العلماء (شولتسر) الذي قارن بين العربية والعبرية، ومن بعده (نولدكه) في مقارنته بين العربية والآرامية. وكذلك قدم (وليم رايت) *William Right* و(لندبرج) *Lindberg* دراسات في النحو المقارن للغات السامية.

ثم جاء ذلك عملاق هذا الفن المستشرق الألماني (كارل بروكلمان) *C. Brockelmann* فألف كتابه الضخم "الأساس في النحو المقارن للغات السامية" في جزأين، كما ألف كتابا آخر من بعده عنوانه "فقه اللغات السامية" وكل من جاء بعده عالة عليه مثل (أوليري) *Delacy O laery*، و(برجشتراسر) *Bergstrasser* الذي ألف كتاب (التطور النحوي للغة العربية) مقارنا فيه بين العربية وأخواتها الساميات ثم جاء من بعده (موسكاتي) *Moscatti* الذي ألف كتابا بالإيطالية ثم ترجمه إلى الإنجليزية. ومع تقدم هذا الفن في الغرب إلا أنه مازال فنا جديدا في الشرق؛ لعدم التمكن من تعلم اللغات السامية وإتقانها إلا للقليلين⁵⁹، فلم يعرف المحدثون العرب هذا المنهج إلا في مطلع القرن العشرين، وذلك عندما افتتحت الجامعة المصرية استعانت بمجموعة من المستشرقين في هذا الفن ومن أهمهم (برجشتراسر وليتمان وشادة).

⁵⁶ انظر اتجاهات البحث اللساني 50، ومحاضرات في علم اللغة العام 188-189.

⁵⁷ انظر الموجز في تاريخ علم اللغة 276.

⁵⁸ انظر مناهج البحث في اللغة والمعاجم، 47.

⁵⁹ انظر المدخل إلى علم اللغة 202 - 204.

وقررت اللوائح الجامعية تدريس مقرر اللغات الشرقية بأقسام اللغة العربية بكليات الآداب، ثم أنشئت أقسام خاصة للغات الشرقية؛ ومن ثم عرفت البحوث المستقلة والمتخصصة في اللغات السامية وأجريت المقارنات وظهر ما تعرف بالنحو المقارن للغات السامية.⁶⁰

ولا ننسى في هذا المقام ما قدمه اللغوي البارع الدكتور رمضان عبد التواب -رحمه الله- من دراسات مقارنة في كتابه "المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي" بين العديد من اللغات السامية كالعربية والعبرية والحبشية والآرامية والآشورية والأكادية، في العديد من الظواهر الصوتية والصرفية مثل (أبنية الفعل، وأدوات التعريف والتكرير، والتذكير والتأنيث، وإسناد الأفعال إلى الضمائر، والأفعال المعتلة) والنحوية أيضا.⁶¹

علاقة المنهج المقارن بالمنهجين الوصفي والتاريخي:

المنهج المقارن يعتمد بصورة مباشرة على المنهج الوصفي، فأية دراسة مقارنة لا بد وأن تسبق بوصف لغوي لكل لغة على حدة، وبمقتضى هذا الوصف يتسنى للباحث أن يجري مقارناته وأن يستخلص نتائجه، فمن المستحيل إجراء مقارنة

بين طرفين مجهولين أو بين طرف معلوم وآخر مجهول، وهنا تأتي حتمية الوصف كشرط أساسي لعلم اللغة المقارن.

ومن الملاحظ اعتماد الدراسة المقارنة على المنهج التاريخي؛ حيث تقتضي الدراسة المقارنة تتبع الظواهر المشتركة في لغتين أو أكثر من عائلة واحدة، وهذا يعني أن الدراسة المقارنة شكل من أشكال الدراسة التاريخية؛ لأنه ينطلق من فرضية أن لغتين أو مجموعة من اللغات تنتمي إلى أصل واحد، وهذا يعني ضمنا أن تطورا ما قد أصاب هذا الأصل وأدى إلى هذا الانقسام.⁶²

المبحث الخامس (المنهج التقابلي)

يقوم هذا المنهج على عقد مجموعة من المقارنات اللغوية بين لغتين تنتميان إلى فصيلتين لغويتين مختلفتين كالعربية واليابانية، أو الصينية أو الفرنسية أو الإنجليزية أو الأسبانية، وهذه المقارنات تشمل جميع المستويات اللغوية للغتين المتقابلتين، ونعني بالمستويات: (الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية)؛ لذا عرّفه المحدثون بأنه: دراسة لغتين أو أكثر تنتميان إلى أسرتين لغويتين مختلفتين؛ للوقوف على مواضع الاختلاف بينهما؛ لتيسير عملية التعلم.⁶³

⁶⁰ انظر فصول في الدرس اللغوي 136 - 144.

⁶¹ انظر المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، 181 - 308.

⁶² انظر محاضرات في علم اللغة العام 190 - 191، ومن أسس علم اللغة 255.

⁶³ انظر مقدمة في علم اللغة 239.

نشأته: مع التقدم العلمي والحضاري الذي عم كثيرا من بلاد العالم، ومع التقدم الهائل في أجهزة الاتصال بدأ العالم يشعر بأهمية تبادل العلاقات والخبرات والثقافات بين شعوبه، فأخذ إنسان هذا العصر يحاول هدم ما تبقى من عوامل العزلة وعوامل الاختلاف التي تتجلى في أوضح صورته في اختلاف اللغات، فازداد الإقبال على تعلم اللغات الأجنبية، وبدأت المدارس والجامعات تفسح مكانا بين مناهجها لتلبية الحاجة المتزايدة لتعلم هذه اللغات ولم يقف علماء اللغة موقف المتفرج من هذه المتغيرات، بل أقبلوا يشاركون بدورهم في تسهيل عملية تعلم اللغات الأجنبية، من خلال ابتكار منهج لغوي جديد هو علم اللغة التقابلي.⁶⁴

ولما كان الإنسان اجتماعيا بطبعه؛ أي لا يستطيع الحياة منفردا؛ فهو في اتصال وتواصل بينه وبين الآخرين. ولما كانت اللغات والألسنة متعددة شعر الإنسان بحاجته إلى تعلم اللغات الأخرى لتحقيق التواصل؛ ومن ثم تطلب ذلك الوقوف على مواضع الاختلاف بين لغة المتكلم الأصلية واللغة المراد تعلمها وهذه الدراسة تعرف بالمنهج التقابلي.

ومن المعروف أن المتكلم في تعلمه للغة جديدة يتأثر بعاداته النطقية والتركيبية في لغته الأم؛ وذلك لأن أعضاء النطق وكذلك الجزء الخاص باللغة في العقل حدث لهما أمران:⁶⁵

(أ) تكيف كل منهما على النظام الخاص باللغة الأم بمستوياتها كلها (صوتية وصرفية وتركيبية ودلالية).

(ب) حدث بين العقل وأعضاء النطق ما يسمى بالتوافق الذهني والعضلي في القدرة على أداء اللغة الأم، ولنتخذ مثالا لنتعرف على الفرق الصوتي بين العربية والإنجليزية:

فصوت الباء في العربية صوت واحد (فونيم واحد) على حين نجد له في الإنجليزية صوتين مختلفين (B - P) ولكل منهما فونيم له خصائصه النطقية.

وعلى المستوى التركيبي: فالتركيب الوصفي في العربية يأتي الموصوف أولا، ثم تأتي الصفة، فنقول: (كتاب جديد) على حين يحدث العكس في الإنجليزية تأتي الصفة أولا ثم يأتي الموصوف فنقول: (New Book)؛ فيترجمها العربي طبقا لعاداته التركيبية في لغته فيقول: (جديد كتاب).⁶⁶

والأسس التي تعتمد عليها الدراسة التقابلية هي:⁶⁷

1- تحديد لغتين مختلفتين تنتميان إلى أسرتين لغويتين مختلفتين ك"العربية الفرنسية"، أو "الإنجليزية واليابانية"، أو "العبرية والفارسية".

⁶⁴ انظر محاضرات في علم اللغة العام 195.

⁶⁵ انظر فصول في الدرس اللغوي بين القدماء والمحدثين 142 - 144.

⁶⁶ انظر العربية وعلم اللغة الحديث 100.

⁶⁷ انظر فصول في الدرس اللغوي 143.

2- تحديد مستوى معين للدراسة في كلتا اللغتين كمستوى الفصحى أو العامية.

3- تحديد مواضع الاختلاف بين اللغتين المدروستين بعد وصف كل منهما على حدة.

4- يقوم الباحث التقابلي بدراسة الظاهرة المقصودة دراسة وصفية في كل لغة على حدة، ثم يقابل بين اللغتين في نتائج الدراسة الوصفية؛ فيصل إلى مواضع الاختلاف بينها؛ ومن ثم تعتمد الدراسة التقابلية على المنهج الوصفي أولاً بوصف كل منهما على حالتها الراهنة، ثم التقابلي ثانياً بتحديد أوجه التشابه والاختلاف بينهما مع التركيز على جوانب الاختلاف.⁶⁸

5- تكمن أهمية الدراسة التقابلية في تيسير عملية الترجمة عن طريق إيجاد المكافئ اللغوي؛ وذلك من خلال معرفة أوجه الاتفاق والاختلاف بين اللغتين المنقول منها، والمنقول إليها.

6- كما يمكن من خلال الدراسة التقابلية الوقوف على خصائص اللغات وكيفية اكتسابها.

7- كذلك يعتمد على الدراسة التقابلية في وضع المناهج التربوية والتعليمية وفي اكتساب اللغات وتيسير تعلمها.⁶⁹

وليس للعرب القدماء دراسات تقابلية بالمعنى العلمي الحديث، بل كانت لهم إشارات طفيفة متناثرة هنا وهناك تشير إلى تعلم بعضهم لغات أجنبية بالإضافة إلى لغتهم الأم، ومن هؤلاء سيبويه (ت180هـ) الذي كان فارسي الأصل، ويعبر عن ذلك في ثنايا كتابه (الكتاب) فيشير إلى (نظام الإبدال في الفارسية). وكذلك أشار شارح كتاب سيبويه (السيرافي) إلى تمكنه في الفارسية؛ وذلك لكونه كان يعيش في بيئة ثنائية اللغة (جنوب غرب إيران) إضافة إلى أصله الفارسي⁷⁰. كما التفت (أحمد بن حمدان الرازي ت322هـ) صاحب كتاب "الزينة" إلى اللغة الفارسية فيورد فصلاً يقابل فيه بين العربية والفارسية من حيث الزيادة النقصان في الحروف والألفاظ والمعاني؛ فينتهي إلى تفضيل العربية على الفارسية التي ألقنها وخبرها⁷¹، إلا أن هذه الإشارات لا تتدرج ضمن المنهج التقابلي؛ لأن الدراسة التقابلية تدرس مواضع الاتفاق والاختلاف بين اللغتين مع التركيز على جوانب الاختلاف وذلك في كل مستوياتها، دون أن يفاضل إحداها على الأخرى؛ فتأتي دراسة مجردة موضوعية تبين خصائص كلتا اللغتين.

⁶⁸ انظر مقدمة في علم اللغة 240.

⁶⁹ انظر العربية وعلم اللغة الحديث 101.

⁷⁰ انظر علم اللغة العربية 122.

⁷¹ انظر الزينة 60 - 64.

ولاشك أن (أبا على الفارسي) كان يتكلم الفارسية بحكم أصله ونشأته، كما علمها لتلميذه (ابن جني) بالإضافة إلى لغة ابن جني الرومية؛ وقد دلل على ذلك في بعض أبواب كتابه (الخصائص) نحو (ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم).⁷²

كما أثنى أبو حيان الأندلسي (ت 745 هـ) أكثر من لغة أجنبية، مثل (الفارسية والتركية) إضافة إلى الحبشية، وقد ذكرت له مؤلفات في تلك اللغات مثل (منطق الخرس في لسان الفرس، والإدراك للسان الأتراك، وزهو الملك في نحو الترك)⁷³، وإن كنا لم نطلع على أي من تلك المؤلفات؛ لكونها لم تصل إلينا. وهذه من أهم الإشارات التي تدل على قيام نحاة العربية بالدراسات التقابلية تطبيقاً، دون أن ينظروا لذلك نظرياً.⁷⁴

أوجه الاختلاف بين المنهجين المقارن والتقابلي:

1- مادة المقارنة: فعلى حين يبني المنهج المقارن على أساس المقارنة بين لغتين مختلفتين ينتميان إلى فصيلة لغوية واحدة، ينطلق المنهج التقابلي على أساس المقارنة بين لغتين مختلفتين لا ينتميان إلى أصل لغوي واحد.

2- هدف المقارنة: فالمنهج التقابلي يهدف أساساً إلى غرض تعليمي بحث، وهو تسهيل عملية تعلم اللغات الأجنبية، أما المنهج المقارن فلا شأن له بعملية التعليم، فأهدافه تتعلق بالحركة التاريخية لبعض اللغات ذات الأصل الواحد، أي محاولة إعادة بناء اللغة الأم التي انبثقت منها هاتان اللغتان.

3- تركيز المنهج: تركيز المنهج التقابلي ينصب على أوجه الخلاف بين اللغتين المدروستين، أما المنهج المقارن فإن تركيزه ينصب بصفة أساسية على أوجه الاتفاق بين اللغتين المدروستين.

4- الاعتماد على المنهج الوصفي: على الرغم من أن المنهجين يعتمدان على المنهج الوصفي في تقديم المادة الأساسية اللازمة لعقد المقارنات، إلا أن المنهج المقارن يعتمد إلى جانب ذلك على بعض عناصر الدراسة التاريخية. في حين لا صلة للمنهج التقابلي بأي من عناصر الدراسة التاريخية.

5- زمن ظهور المنهج: المنهج المقارن منهج قديم من الناحية الزمنية، أما المنهج التقابلي فمنهج حديث، وقد نشأ كل من المنهجين في ظروف تاريخية مختلفة تماماً.⁷⁵

⁷² انظر الخصائص 357/1.

⁷³ انظر بغية الوعاة 283/1.

⁷⁴ انظر فصول في الدرس اللغوي 142 - 144.

⁷⁵ انظر محاضرات في علم اللغة العام 197 - 198.

الفصل الثاني ((مدارس التحليل اللغوي في العصر الحديث))

تمهيد:

اهتمت اللسانيات المعاصرة بوصف نظام اللغة، انطلاقاً من اللغة من حيث إنَّها بنية شكلية وقواعد وظيفية، انطلاقاً من محاضرات اللسانيات العامة لدي سوسير، وقبل أن نعرض لأفكار دي سوسير جدير بنا أن نعرِّف به سريعاً.

دي سوسير حياته ونشأته:⁷⁶

ولد دي سوسير في جنيف (1857 - 1913م) من أسرة مهاجرة من فرنسا إلى سويسرا إبان الحرب الفرنسية الدينية، وقد اتصل دي سوسير وهو في سن الخامسة عشر من عمره بصديق والده أدولف بيكتيت Adolphe pictet عالم الفيلولوجيا، وقد تلقى تعليمه في جنيف ثم ألمانيا، وتخصص في دراسة اللسانيات، وكان أول بحث له بعنوان (ملاحظات حول النظام البدائي للصوائت في اللغات الهندية الأوروبية) نُشر عندما كان طالبا في ألمانيا، ثم عمل محاضرا في المدرسة العليا بباريس، من عام 1881م إلى عام 1891م، ثم عاد إلى جنيف فتولى منصب الأستاذية بها.⁷⁷

اعتنى دي سوسير في أول حياته بالدراسات التاريخية للغة، وقد كانت سبب شهرته فيما بعد، كما تخصص في دراسة (تاريخ اللغات الهندية الأوروبية)، وعندما عُهد إليه بتدريس مقرر في اللسانيات العامة، تناولها من الناحية التاريخية أولاً، ثم ألحح إلى المنهج التزامني (الوصفي) في العام الثاني، وفي العام الثالث انفرد بالمنهج التزامني (الوصفي) وعلى الرغم من أن أهم أعماله بجامعة جنيف لم تنشر إلا بعد وفاته، إذ قام بنشر محاضراته في علم اللغة بعض تلامذته وعلى رأسهم (تشارلز بالي وألبر سيشيهيه) عام 1916م، ونُشرت بعنوان (محاضرات في اللسانيات العامة) أو (محاضرات في علم اللغة العام) وبفضلها عُرف واشتهر كمؤسس لعلم اللغة الحديث، ولاسيما الاتجاه البنيوي، وعُرف كذلك بأنه زعيم المدرسة اللغوية الوصفية التشكيلية.⁷⁸ وقد شاعت أفكار دي سوسير بين الدارسين وكانت ركيزة أساسية لكل مدارس التحليل اللغوي في العصر الحديث؛ حيث تقوم في معظمها على المبادئ النظرية التي أرسى قواعدها دي سوسير وعلى الأسس المنهجية التي وضعها وسنعرِّج سريعاً على أهم أفكاره فيما يلي:

⁷⁶ انظر فصول في الدرس اللغوي 66-67.

⁷⁷ انظر مدارس اللسانيات 26 - 27.

⁷⁸ انظر فصول في الدرس اللغوي 66 - 67، ومدارس اللسانيات 27.

- يعتبر دي سوسير أول من قال بأن اللغة: نظام من العلامات أو الرموز، فهو رائد المنهج الوصفي البنيوي الذي يقوم على تحليل عناصر اللغة بالاستعانة بالعناصر الأخرى التي تشتمل عليها تلك اللغة حيث يقوم الباحث بوصف العناصر الصوتية لبناء مفردة معينة محاولاً من خلالها الوصول إلى تكوين الوحدات المورفولوجية لتكوين عبارات وجمل.

- ميّز (دي سوسير) بين (اللغة واللسان والكلام) غير أنه ركز اهتمامه على اللسان حيث قال: (اللسان شكل لا مادة) فقد رأى ضرورة تصور اللسان ووصفه على أنه نظام من العناصر المترابطة على المستويات التالية: الدالية والنحوية والصرفية الصوتية؛ حيث بدأ بالمسائل الصوتية ثم أتبعها بمسائل الصرف ثم بالنحو وفروعه، موظفاً الأصوات في خدمة الصرف فالفكر البنيوي يرى أن اللغة بنية منظمة متكاملة فيعنى بتصنيف الكلمات وصلاتها الاشتقاقية وصورها، والإضافية من حيث الفصل والوصل مع إبراز الطابع العضوي لأنماط اللغة، وما يترتب على ذلك من فكرة المعاقبة في الموقع ثم الربط بين الصورة والوظيفة التي تؤديها الصورة في النظام، ويتّضح بذلك أن التحليل البنيوي يبدأ من المستوى الصوتي ثم يتعداها إلى المستويات اللسانية الأخرى.⁷⁹

- لقد اعتبر دي سوسير اللغة نظاماً ومؤسسة اجتماعية، في حين أن الكلام نتاج فردي يصدر عن وعي وإرادة، فهو ذو طابع تحرري؛ حيث يرى أن منشأ الكلام ينطلق من الدائرة الكلامية التي يفترض لها وجود شخصين على الأقل يتبادلان الحديث، لذا تُعزى إليه نشأة الخطاب، رغم فصله بين الكلام واللغة، فقد حدد عناصر العملية الكلامية إلا أنه جعل الكلام عنصراً ثانوياً، وهذه التفرقة جعلت اللسانيات تقف في حدود الجملة؛ أي إنها تعتبر وصف سلسلة كلامية من الجمل، ولم تخرج عن هذا الإطار فقد ظلت اللسانيات البنيوية تبحث عن العام بدل الخاص، أي ما هو عام ومشترك بين جميع اللغات، في الدراسة اللسانية للغات.

- كما نظر دي سوسير إلى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية، وهي تُستمد من كل فرد من أفراد المجتمع، ولا ترتبط بأي فرد على حدة، بل إن كل فرد في المجتمع خاضع لها.⁸⁰

- اللغة عند دي سوسير نسق من العلامات، والعلامة: هي اتحاد يُعرف بـ(الدال) وفكرة محددة تُعرف بـ(المدلول)، وكل من الدال والمدلول لا ينفصل أحدهما عن الآخر فهما وجهان لعملة واحدة، ويكونان عنصراً واحداً وهو العلامة، والعلامة هي الوحدة المحورية في اللغة، والعلاقة بين الدال والمدلول علاقة عشوائية غير منتظمة، ولكل لغة علاماتها الخاصة، بوصفها العناصر الأساسية لها، ولكل لغة عملياتها المختلفة لضم هذه العلامات أو الجمع بينها.⁸¹

⁷⁹ انظر أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث 27.

⁸⁰ انظر محاضرات في علم اللغة الحديث 160.

⁸¹ انظر فردينا ندي سوسير، تأصيل علم اللغة الحديث 31.

- يرى دي سوسير أن العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة عرفية فلفظة (dog) في الإنجليزية لا تدل على معناها من خلال أصواتها وإنما تكتسب هذه اللفظة معناها من خلال تعارف المجتمع واتفاقه، فهي اصطلاحية اتفاقية ثابتة بالنسبة للغة الواحدة والمجتمع الواحد.⁸²

- لقد اهتم دي سوسير بالوحدة اللغوية وعلاقتها بالوحدات الأخرى في النظام حيث تظهر قيمتها بعلاقتها بالعناصر اللغوية الأخرى، وشبه اللغة بذلك بعلبة الشطرنج تستمد كل قطعة قيمتها بالموقع الذي تحتله على رقعة الشطرنج في مقابل المواقع التي تحتلها القطع الأخرى على الرقعة "فالعلاقة بين قطع الشطرنج هي العلاقة نفسها التي تقوم عليها اللغات الإنسانية من حيث علاقة عناصرها الداخلية ببعضها ببعض داخل النظام اللغوي"⁸³ ليبين العلاقة الموجودة بين وحدة ما مع بقية الوحدات في تركيب ما.

وهذه العلاقات إما علاقات أفقية، ويقصد بها تتابع المنطوق في سلسلة كلامية واحدة، كأن يُقال: (كتب محمد الدرس في المساء) أي علاقة الفعل بالفاعل والمفعول والظرف. وإما علاقة رأسية، ويعني بها العناصر التي يمكن أن تحل محل بعضها رأسياً في التركيب، كأن يُستبدل محمد بـ(بلال أو خالد أو عمرو أو عامر) فكل اسم من هذه الأسماء يجوز أن يحل محل الآخر في التركيب السابق، كما يجوز أن يُستبدل الفعل (كتب) بالفعل (قرأ أو فهم...) وهذا الاستبدال الرأسي هو العلاقة الرأسية.⁸⁴

- ومن أهم أفكاره النظرة "البنوية" إلى اللغة، وهذه النظرة لم تكن مستقلة عن أفكاره الأخرى، وبالأخص منها، تمييزه بين بعدين هامين في الدراسات اللغوية وهما: "السنكرونية" أو (الوصفية) التي تُدرس فيها اللغات بوصفها أنظمة اتصال تامة في ذاتها في زمن محدد ومكان محدد. في مقابل "الديكرونية" أو (التاريخية) التي تُدرس فيها اللغات بوصفها تخضع لعوامل تغيير عبر الزمن. وكل منهما يخضع لمبادئ وأساسيات خاصة، يقول دي سوسير: "فتاريخ اللغة بالنسبة للمتكلم ليس له وجود، ومن ثم فالدراسة الوصفية هي الأصوب والأجدر والتي يمكن من خلالها الوصول إلى القوانين التي تحكم اللغة وتفسر بنيتها الداخلية والخارجية".⁸⁵

تعد أفكار دي سوسير منطلقاً لكل المدارس اللسانية الحديثة وثورة على المنهج التاريخي المقارن، فكانت أفكاره فاتحة عهد جديد في مضمار "العلوم اللسانية" بصفة خاصة؛ - لأنها المحاولة الأولى التي تصاغ فيها المفاهيم اللسانية الحديثة صياغة منهجية - و"العلوم الإنسانية" بصفة عامة؛ لذلك فجل المدارس اللسانية الحديثة وصفية المنطلق؛ لأنها قامت على أفكار دي سوسير، ثم تلونت بوجهات نظر خاصة منحها صبغة

⁸² انظر فصول في الدرس اللغوي 69.

⁸³ المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي 185.

⁸⁴ انظر مقدمة في علم اللغة 324.

⁸⁵ انظر مدارس اللسانيات 28.

معينة، وسنعرض لأهم هذه المدارس، ولا نستطيع أن نستوعب جميع المدارس، فسنعرض لاثنتين منها وسنكمل في بحوث قادمة إن شاء الله:

المبحث الأول (مدرسة براغ)

تعد مدرسة "براغ" أفضل من يُمثل الاتجاه الوظيفي في دراسة اللغة؛ وقد نشأت في أحضان نادي براغ اللساني الذي أنشأه العالم التشيكي "فيلام ماثيوس" وبعض معاونيه سنة 1926م. وعُرفت بالمدرسة الوظيفية أو الفونيمية، وبلغت ذروتها في الثلاثينيات⁸⁶ وتحديدا عندما انضم إليها سنة 1928م ثلاثة لسانيين روس وهم: رومان جاكسون، وسيرج كرسفسكي، ونيكولاي تروبتسكوي⁸⁷، ومنذ 1930 ازداد توسع المدرسة لينضم إليها لفيف من اللسانيين الفرنسيين: أندري مارتيني، وإميل بنفست، وتينير وغيرهم من لسانيين أوروبيين. ومازال نفوذها إلى الآن عندما قام لسانيون بعد وفاة ماثيوس بإحيائها من جديد رسميا في نوفمبر 1992م، ومن أبرزهم بيتر سغال، وإيفا هاجيكوفا⁸⁸، وواصلت أفكار مدرسة براغ ازدهارها في أمريكا (نيويورك وهارفارد ...) ممثلة في أعمال رومان جاكسون.⁸⁹

منهج الدراسة:

سميت المدرسة الوظيفية انطلاقا من تحديدها لمنهجها باعتبارها اللغة نظاما وظيفيا يرمي إلى تمكين الإنسان من التعبير والتواصل⁹⁰، وباعتقادها أن البنى الصياغية، والقواعدية، والدلالية محكومة بالوظائف التي تؤديها في المجتمعات التي تعمل فيها. لذلك يجب أن تكون دراستها دراسة وظيفية محضة. فالباحث فيها يحاول دائما أن يكشف ما إذا كانت كل القطع الصوتية التي يحتوي عليها النص تؤدي وظيفة في التبليغ أم لا.⁹¹

من أعلام هذه المدرسة:⁹²

⁸⁶ انظر اللسانيات النشأة والتطور 136.

⁸⁷ انظر مبادئ اللسانيات البنوية 103.

⁸⁸ انظر الاتجاهات اللسانية 70.

⁸⁹ انظر مبادئ اللسانيات البنوية 104.

⁹⁰ انظر أهم المدارس اللسانية 41.

⁹¹ مبادئ في اللسانيات 86.

⁹² انظر في المناهج اللغوية وإعداد الأبحاث 67 - 68.

فيلام مثيريوس (Vulém Mathesieus) (1882 - 1945م)، من ألمع العلماء في اللسانيات واللغة والأدب الإنجليزي، شغل منصب أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة كارولين الأمريكية، وكان ندائه الأول حول منهج جديد غير تاريخي سنة 1911م حين نشر مقال بعنوان "حول كمونية الظواهر اللغوية"، من أهم الأبحاث التي قام بها استعماله للدراسة الوظيفية للتمييز بين النحو والأسلوبية. ومن أهم إسهاماته التي نال بها شهرة كبيرة في اللسانيات، تمييزه بين مفهومي "الموضوع" و"الخبر" وتطويره لمنظور الجملة الوظيفي: حيث قال في الموضوع: هو الاسم الذي تخبر عنه الجملة، أو الكلمة التي هي محور الكلام في الجملة، والخبر هو كل ما يقال عن موضوع الكلام، إلى غير ذلك من أفكار.

نيكولاي تروبتسكوي (Prince Nicolai trubetwkoy) (1890م - 1938م) يعد تروبتسكوي من أبرز أقطاب مدرسة براغ، فقد انكب على دراسة الاثنوغرافيا والفيلولوجيا الفنلندية الإغريقية والقوقازية، وهو لا يتجاوز الثالثة عشر. نشر مقالين علميين وهو لا يتجاوز الخامسة عشر. زاول دراسة اللسانيات الهندو أوروبية في جامعة موسكو وبعد مناقشته حولها أصبح أستاذا بالجامعة سنة 1916م، وفي الفترة ما بين 1920م و 1922م أوكل إليه كرسي اللسانيات الهندو أوروبية في صوفيا، وعين بعد ذلك في كرسي الفيلولوجيا السلافية في فيينا. ومنذ ذلك الوقت أصبح عضوا بارزا في نادي براغ اللساني ومكث في فيينا حتى وفاته 1938م.

برع في ميدان الصوتيات الوظيفية، وله فيها مؤلف شهير: (مبادئ الفونولوجيا 1939م)، كما اعتنى بتطوير مفهوم الفونيم وأضفى عليه صبغة علمية وعملية في آن واحد وعرفه بقوله: "الفونيم هو أولا وقبل كل شيء مفهوم وظيفي"، كما اعتنى بمفهوم التضاد الفونولوجي وعرفه بقوله: "إنه كل تضاد فونولوجي بين صوتين مختلفين، يمكن أن يميز بين معانٍ فكرية في لغة معينة".

رومان جاكبسون (Roman jakobson) ولد بروسيا وزاول دراسته بمعهد اللغات الشرقية بالجامعة المركزية تخصص في اللسانيات المقارنة والفيلولوجيا السلافية، وهو أحد مؤسسي "نادي براغ اللساني"، شغل به منصب نائب الرئيس عام 1938م، درّس بجامعة كوبنهاغن، وكولومبيا، وهارفارد... ودرس اللسانيات العامة والسلافية بمعهد ماساتشوست،

له مقدمة في تحليل الكلام، ومبادئ اللغة، ومحاولات في اللسانيات العامة وهو أهم مؤلفاته يضم إحدى عشرة مقالة. وقد أبدع في عدة مجالات منها: الفونولوجيا، والأسلوبية، وعلم النفس اللغوي وعلم الدلالة، والتطور

اللغوي عند الأطفال والمعاقين أو كيفية اكتساب الطفل بعض الأصوات، وكيفية فقدانها بمرض الحبسة الذي يؤدي إلى العجز عن نطق الأصوات.

أندري مارتيني: (André Martinet) ولد بمقاطعة السافوا بفرنسا، اشتغل بالتدريس، واهتم بدراسة اللغة الانجليزية نال الدكتوراه في دراسة اللغة الجرمانية 1937م وأصبح مديرا للدراسات الفونولوجية بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا في 1938م، وشارك في أعمال نادي براغ التي كانت تنشر بانتظام، ويعد من أشهر اللسانيين المعاصرين.

من بين أهم إسهاماته مفاهيمه ونظرياته التي أسس بها اللسانيات الوظيفية على المستوى التركيبي للغة، وذلك في العديد من مؤلفاته نذكر منها: اللسانيات الآنية، ومبادئ في اللسانيات العامة، واللغة والوظيفة. فهو ينظر إلى اللفظة من حيث استقلالها تركيبياً وموقعياً داخل نفس التركيب من خلال الوحدات الوظيفية، ويعد مارتيني الامتداد الطبيعي لترويسكوي، لأنه ينظر إلى اللفظة من حيث استقلالها تركيبياً وموقعياً داخل نفس التركيب من خلال الوحدات الوظيفية والتي استخدمها في نظريته لعلم التركيب.

الأفكار والمبادئ التي بُنيت عليها المدرسة الوظيفية:

اللغة: عندهم أداة تواصل تحلل بواسطتها التجربة البشرية تحليلاً يختلف من مجموعة إلى أخرى عن طريق وحدات ذات دلالة وشكل صوتي هي اللفاظ (Monèmes)، وتقطع هذه اللفاظ بدورها إلى وحدات مميزة متتالية هي الصوتيات (Phonèmes)، وعددها محدود في كل لغة، كما أنها تختلف أيضاً من لغة إلى أخرى من حيث طبيعتها وعلاقة بعضها ببعض⁹³. نستخلص من هذا التعريف ما يلي:

1- اللغة وسيلة اتصال: وهو اعتبار اللغة أداة تسهل عملية التواصل الإنساني، واتخاذها مقياس لتحليل النظام اللغوي ووصفه⁹⁴. فاللغة أداة تواصل تحلل بها التجربة البشرية (هي مجموع الخبرات المتراكمة عند جماعة إنسانية في بيئة لغوية معينة في زمان ومكان محددين) تحليلاً يختلف من مجموعة إلى أخرى، وتتمحور وظيفتها في الإبلاغ والتفاهم والتواصل بين أفراد المجتمع اللغوي.

⁹³ انظر أهم المدارس اللسانية 41.

⁹⁴ انظر أهم المدارس اللسانية 41.

2- خطية اللغات (التزامن): تعرّف اللغات الطبيعية على أنها عبارة عن سلسلة من العلامات الخطية المتتالية يتبع بعضها البعض⁹⁵، فالصواتم يتلو الواحد منه الآخر في اللفاظم، واللفاظم يتبع بعضها البعض في الجمل، ولا مجال للتلفظ بصوتين أو أكثر أو بلفظين أو أكثر في آن واحد، فكلام المتكلم هو بمثابة الخط المكون من نقط متتابعة.⁹⁶

3- ازدواجية تقطيع اللغات: وهي ظاهرة كلية تشترك فيها مختلف الأنظمة اللغوية، وميزة تُسهل للمتكلم أن يستعمل نفس العلامات في خطاباتته المختلفة، وهو أساسي عند مارتيني: فهو يرى أن اللسان البشري مزدوج التقطيع ومنه يقطع اللغة إلى وحدات (Monèmes)، ثم إلى وحدات دنيا (Phonèmes)، وهي محدودة في كل لغة.⁹⁷

هذه هي أهم الأفكار التي انطلق منها الوظيفيون واعتبروها داعية إلى تحديد مبادئ ووجهة اللسانيات الوظيفية.

المبادئ البنوية (الوظيفية) المعتمدة في تحليل اللغة:

وتتميز الدراسة الوظيفية للغة بتفرعها على مستويين المستوى الصوتي والمستوى التركيبي. وإن من أهم المبادئ البنوية التي نادت بها مدرسة براغ نذكر ما يلي:⁹⁸

أولاً : المستوى الصوتي:

الانطلاق في التعامل مع اللغة من مبدأ اعتقادها ظاهرة طبيعية وواقعا فعليا خاضعة لظروف مبدأ التواصل.

- الاهتمام بالمبدأ التزامني في الدراسة اللغوية.

- لمرتبة الصوت قيمة في الوظيفية التراتبية، فلا يمكن معرفة الوحدات الصوتية لكل من رَسَمَ وَسَمَرَ مثلاً إلا باختلاف مواقع الحروف.⁹⁹

- استثمار مفاهيم دي سوسير في الدراسة الوظيفية للصوت اللغوي مثل التقابل، والنظام، والعلاقات التركيبية والاستبدالية، وثنائية اللغة والكلام، وغيرها.

⁹⁵ انظر في المناهج اللغوية وإعداد الأبحاث 68.

⁹⁶ انظر أهم المدارس اللسانية 46.

⁹⁷ انظر في المناهج اللغوية وإعداد الأبحاث 68.

⁹⁸ انظر مبادئ اللسانيات البنوية 105.

⁹⁹ انظر في المناهج اللغوية وإعداد الأبحاث 68.

- الاهتمام بتحليل البنية الأولية البسيطة للغة وهي الفونيم من أجل العثور على سماتها الوظيفية.
- يعتبر الفونيم في تصور "تروبتسكوي" أصغر وحدة فونولوجية في اللسان المدروس، وعرفه بقوله: "الوحدة الفونولوجية التي لا تقبل التجزئ، إلى وحدات فونولوجية أخرى أصغر منها في لغة معينة".¹⁰⁰
- تصنيف الوحدات الصوتية في اللغة الواحدة ووضعها في نظام اندراجي يسمح بالنظر إليها من حيث هي وقائع صوتية ذات وظائف وسمات مميزة.
- الكشف عن العلاقات التي تنطوي على وظيفة في النظام الفونولوجي للغة الواحدة، مثل: علاقات التقابل بين مجموعة الحروف الشفوية (م،ب،و)، أو بين الحروف الصغرية (س، ص، ز) في اللسان العربي.
- نحو¹⁰¹: س + إطباق = ص، و: ص - إطباق = س، و: ز - جهر = س، و: س + جهر = ز.
- التمييز بين التنوعات الصوتية التي هي مجرد تحقيقات نطقية لفونيم واحد والتغيرات التي تصيب الفونيمات بحيث تقتضي تغيير الدلالة للكلمة وذلك عند تبديل فونيم مكان فونيم آخر في السياق ذاته.
- ويمكن أن نجسد هذا المبدأ في مثال بسيط من حياتنا اليومية:
- ففي لهجة الجزائريين: هناك من ينطق لفظة: قال "قال"، فهل نعتبر (ق) فونيم وظيفي؟
- والجواب: لا، مادام تغييره لا يضيف معنىً جديداً، ويُقر عالم الأصوات هنا بوجود وحدة واحدة تمييزية (فونيم)
- دراسة التغيرات التي تتم في ظل علاقات التأثير والتأثير داخل البنية المتكاملة والمتموضعة في إطارها التزامني.

ثانياً : المستوى التركيبي:

- الاهتمام بتحليل البنية التركيبية وتفكيك الملفوظ (المونيم) إلى وحدات دنيا متتابعة مفيدة.
- اتخاذ المعنى مقياس في تحليل النصوص اللغوية، ويتغير المعنى بتغير اللفظ.¹⁰²
- تحديد الأجزاء (Segment)، التي تمثل في الحالتين اختيار توخاه المتكلم، إما للحصول على دال بعينه (1)، وإما لتبليغ رسالة بعينها (2) كما يلي:
- (1) وذلك يكون باستعمالنا طريقة التحليل بالتعويض (La commutation) الذي يقتضي في هذه النقطة

¹⁰⁰ اللسانيات النشأة والتطور 142.

¹⁰¹ انظر مبادئ اللسانيات البنوية 162 - 163.

¹⁰² انظر أهم المدارس اللسانية 46.

مقابلة مونيم بغيره¹⁰³ لإبراز الوحدات الدنيا التي تساهم في تمييز الوحدة "أطفال" مثلاً عن غيرها باستبدالنا لفونيم الـ 'ط' بفونيمات أخرى مثل (ن) أو (ق)، ينتج لنا من ذلك مونيمات أخرى بمعانٍ أخرى: كـ أنفال، و أقفال،

(2) ويكون ذلك في اعتماد المستغيث إرسال رسالته عبر قول أو متوالية وحدات معنوية؛ مثل قوله: "كُسرَت شوكة اليهودي" أو "كُسرَت شوكة الفلسطيني" وهذا كله يتم على حسب مبتغى المتكلم في اختياره لإحدى هذه المونيمات أثناء خطابه (أو نقل تجربته) والتي يصل بها إلى المعنى الذي يريده من وراء هذا الاختيار. - تصنيف وظيفي للوحدات اللغوية (الفاظم، المونيمات)؛ لإيجاد مقاييس موضوعية لضبط الوظائف، وينتج عن ذلك ثلاثة أصناف:

أ- الفاظم المستقلة (المونيم المكتفي)، مثل الظروف في اللغة العربية (أمس، غدا، حيث، بعد ...)

ب- الفاظم الوظيفية (المونيم الوظيفي)، مثل حروف الجر وحروف العطف

ج- الفاظم التابعة (المونيم التابع)، كارتباط اللفظ بآخر ارتباطاً وظيفياً بحسب ترتيبه، أو الإعراب في اللغة العربية، كارتباط الصفة بالموصوف، والتوكيد بالمؤكد ... إلخ.

- تصنيف وظيفي للوحدات اللغوية (المركبات النحوية) ونتج عن ذلك أربعة أصناف¹⁰⁴:

أ- التركيب المكتفي: يتركب من وحدات ذات علاقة وثيقة، ولا ترتبط وظيفته بموقع في الكلام مثل: "انهزمت إسرائيل قبل الهدنة" أو "قبل الهدنة انهزمت إسرائيل".

ب- التركيب الإسنادي: يمكنه أن يشكل خطاباً بمفرده: مثل التركيب الإسنادي "انتصر المجاهدون" في قولنا: انتصر المجاهدون في فلسطين أمس".

ج- الإلحاق: ويشبه مفهوم الفضلة في النحو العربي وهو على نوعين:

1- الإلحاق بالعطف، مثل: الملحق (هداية) في قولنا: العلم نور وهداية.

2- الإلحاق بالتعلق: ويشمل وظائف نحوية مختلفة، النعت والمضاف إليه، والمفعول به وغيرها، مثال ذلك

الملحقان "نافعا" و"كتاب" في قولنا: "اشترِ كتاباً نافعا".

¹⁰³ انظر في المناهج اللغوية وإعداد الأبحاث 68.

¹⁰⁴ انظر مبادئ اللسانيات البنوية 111 - 113.

د- المزج: يحدث عندما تكون هناك قطعة صوتية ممزوجة (amalgamé)، وذلك عند وجود مدلولين متداخلين في دال واحد مما يعيق عملية التحليل إلى قطع متوالية: ومثال ذلك في العربية بالنسبة للتراكيب النحوية البناء للمجهول وجمع التكسير، مثلاً في صيغة من "أطفال" التي لا يمكن تحليل علامة الجمع فيها إلى قطعة صوتية محددة وتكون بذلك استثناء من القاعدة الوظيفية التي تقول بأن "اللغة مزدوجة التقطيع ... وتخصص لكل دال مدلولاً يمكن عزله عن غيره وضبط حدوده"¹⁰⁵، وتشكل المونيمات قسماً مفتوحاً ذات وحدات متغيرة ومتجددة، بينما تشكل الموفيمات (الفونيمات) قسماً مغلقاً وحداته قارة ومحدودة.

تنبيه:

الحرف: هو أصغر وحدة مجردة من كل معنى وتسمى بالوحدات غير الدالة والتي يطلق عليها اسم الفونيم (Phonèmes) وما ترجمته بالعربية الصوتيم، أي الوحدة الصوتية والوظائفية وتسمى أيضاً بالوحدات الدنيا. **الكلمة:** هي القطعة التي تتدرج في المستوى الأول من التقطيع المزدوج حيث إنها أصغر قطعة يصل إليها التحليل مما يدل على معنى. وقد نعثر على تسميات عديدة لهذه الوحدة اللغوية: العنصر الدال، الوحدة المعنوية، [لفظم]¹⁰⁶، وتسمى عند مارتيني: مونيم (Monèmes)¹⁰⁷.

ونجمل أهم إنجازاتهم فيما يلي:¹⁰⁸

- 1- فرقوا بين (الصوت) و(الفونيم)، فالصوت ينتمي إلى الكلام، على حين ينتمي الفونيم إلى اللغة.
- 2- إن (الفونيم) يتكون من مجموعة علامات مميزة، وبتغيرها يتغير المعنى كما هو الحال بين (تين)، و (طين)، (ت) له علامة مميزة تختلف عما يوجد في (ط) من سمات مميزة؛ ومن ثَمَّ كان لكل منهما معنى يخالف الآخر.
- 3- قاموا بتصنيف الأنظمة الفنولوجية بطرق مختلفة وفقاً للملامح التي تميز الفونيمات المكونة لهذه الأنظمة.¹⁰⁹

¹⁰⁵ انظر أهم المدارس اللسانية 46.

¹⁰⁶ انظر أهم المدارس اللسانية 46.

¹⁰⁷ انظر مبادئ في اللسانيات 86.

¹⁰⁸ انظر فصول في الدرس اللغوي 71 - 73.

¹⁰⁹ انظر الموجز في تاريخ علم اللغة 325.

- 4- (الأصوات) عندهم هي مركب يتألف من الخصائص النطقية والسمعية بيد أن هذه الخصائص ليست كلها ذات علاقة بعملية التفاهم المتبادل، ولا يحظى بهذا الوصف إلا بعض من هذه الخصائص، والواقع أن (الفونيم) هو أقل عددا من الخصائص النطقية والسمعية وينبغي استحضاره عند إجراء التواصل.¹¹⁰
- 5- حللوا اللغة بهدف إبراز الوظائف التي كانت مكوناتها البنيوية المختلفة تؤديها في استعمال اللغة بأجمعها.
- 6- لم يكتف علماء (براغ) بوصف اللغة بل تجاوزوها إلى التفسير؛ ومن ثمَّ تحدثوا عن سبب اتخاذ اللغات أشكالها التي وحدت عليها.¹¹¹
- 7- قسم ماثيزيوس الجملة إلى (مسند إليه) و (مسند)، وغالبا ما يتقدم (المسند إليه) على (المسند) إذا لم تكن هناك ضرورة لمخالفة ذلك، و(المسند إليه) هو ما يشير إلى معرفة سابقة لدى السامع أما (المسند) فيضيف معنىً جديدا لم يكن معروفا من قبل، وهذا لا يمثل أشكالا في اللغات التشيكية، فإذا قلنا: (ضرب زيدَ عمرا) فهم أن الضرب واقع من زيد على عمر، والعكس صحيح إذا صيغت الجملة هكذا (ضرب زيدا عمرَ)، كما دعا إلى الدراسة التزامنية في اللغة، والدراسة التاريخية، فأخذ محاسن كلا المنهجين وغض الطرف عن عيوبهما.
- 8- اهتموا بدراسة الجوانب الجمالية والأدبية للغة، كما كانت اللغة لديهم وسيلة لنقل الأفكار.¹¹³
- 9- اللغة عندهم حقيقة واقعية، بمعنى أنها ظاهرة طبيعية فعلية، تتأثر بعوامل خارجية (غير لغوية) مثل المحيط الاجتماعي، والسامعين، والموضوع.
- 10- حاولوا تقريب الهوية بين لغة التكلم، ولغة الكتابة، ووقفوا على أن لكل منهما وسائله، وطرقه في التحليل والوصف؛ ومن ثمَّ لا يجب الخلط بينهما.
- 11- الظواهر الصرفية لا يصح أن تفصل عن الدراسة الفونولوجية، فعادة ما ترتبط التقابلات الفونيمية بالتغيرات الصرفية.¹¹⁴
- 12- حاولوا إبراز مشكلة التشابه بين اللغات المتجاورة جغرافيا وإن كانت غير منحدره من أصول مشتركة، كما هو الحال في بلاد البلقان (فبين لغاتها سمات مشتركة على الرغم من عدم ارتباطها فيما بينها برباط القربى).¹¹⁵

¹¹⁰ انظر اتجاهات البحث اللساني 236.

¹¹¹ انظر مدارس اللسانيات 105 – 106.

¹¹³ انظر مدارس اللسانيات 114.

¹¹⁴ انظر اتجاهات البحث اللساني 248 – 249.

¹¹⁵ انظر محاضرات في علم اللغة الحديث 168، وفصول في الدرس اللغوي 71 – 73.

المبحث الثاني: مدرسة كوبنهاجن:

لقد شهد شمال أوروبا ولادة حركة لسانية متميزة في مطلع القرن العشرين تأثرت في نشأتها بمبادئ دي سوسير ثم تطورت لتستقل بمنهج متميز وأفكار جديدة¹¹⁶. ونشأت هذه الحركة على يد عالمين من الدانمارك هما: أوتو يسبرسن oHo. jesp ersen (1860. 1943)، وهولدر بدرسن Holder pedersen، وقد أثرت مؤلفاتهما في البحث اللغوي، فكتب الأول كتابه "اللغة" الذي نشر سنة 1922، و"فلسفة النحو" الذي نشر سنة 1924، وكتب الثاني "علم اللساني في القرن التاسع عشر".¹¹⁷

ثم تبلورت هذه الحركة كمدرسة سنة 1931م حاملة مشعل اللسانيات البنوية مع إبعاد اللغة ودراسة ظواهرها عن التأثير الفلسفي والأنثروبولوجي وإن كان بعض الباحثين ينظرون إلى هذا العمل في ميدان اللسانيات على أنه لا يمثل مدرسة بالمعنى المعروف، بل مجرد نظرية لسانية تعرف باسم الجلوسيماتيك (Glossematics)، فإن آخرين يعدونها مدرسة (كوبنهاجن) أو مدرسة دانماركية لأن مؤسسيها الأوائل من الدانمرك¹¹⁸.

وقد تمثلت مبادئ هذه المدرسة في أفكار وأعمال روادها الأوائل أمثال: برونдал F. Brondal (1887. 1942) صاحب كتاب "أجزاء الكلام"، وأولدال H. uldall، هلمسليف L. Hjelmslev (1899. 1965)¹¹⁹، الذي كتب مؤلفه الشهير "مقدمة في نظرية اللغة"، الذي يعتبر من أهم وأبرز مؤسسي هذه المدرسة نظرا للخدمات الجلية التي قدمها في سبيل بلورة المبادئ العامة لهذه المدرسة.

وتقوم هذه المدرسة على النظرية المنطقية للغة، حيث اعتبرت أن اللغة نظاما صوريا يقوم على المنطق وذلك أن برونдал وهلمسليف قد تأثرا بالمنطق، تأثرا بالغا.

وكان الرائد الأول لهذه المدرسة: برونдал وبعد وفاته أصبح هلمسلف هو المنظر لهذا الاتجاه الذي تحول إلى النظرية الجلوسيمية، ومن أهم أعمال برونдал التي تركز عليها مدرسة كوبنهاجن في دراستها للظواهر اللسانية:

1- الاعتماد على معيار التقابل لدراسة الظواهر اللسانية المختلفة.

¹¹⁶ انظر المدارس اللسانية 131.

¹¹⁷ انظر المدارس اللسانية 132 وما بعدها.

¹¹⁸ انظر اللسانيات 157.

¹¹⁹ انظر مبادئ اللسانيات البنوية 116.

2- الجمع بين أفكار دي سوسير وبين المنطق الرياضي، فقد تأثر برونдал بأرسطو وكانط وبرجسون، كما أحيأ برونдал العلاقة بين اللغة والفكر، وحاول أن يعرف منطق اللغة¹²⁰.

3- ركز على ملاحظة الطرق التي يمكن أن تكشف عن المقولات المنطقية في الحقائق اللغوية، وقد اعتبر أن المفاهيم المنطقية يمكن أن تطبق على كل النظم اللغوية.

أما لويس هلمسيلف فقد ركز اهتماماته اللسانية على بعض المفاهيم المنطقية الرياضية والتي نتج عنها توجه لساني أسماه بالنظرية الجلوسيمية **glossématique** ، وهو مصطلح اخترعه هلمسيلف "مشتق من الكلمة اليونانية **Glossa** بمعنى كلمة أولغة، ومنها **Glossary** بمعنى قائمة مفردات"¹²¹ ومعنى الكلمة: لغة الرياضيات.

ويدل مصطلح الجلوسيمية على اتجاه خاص في الدراسة اللسانية أعلن عنه خلال مؤتمر للحلقة الدولية لعلم اللغة بكونهاجن سنة 1936¹²². وينطلق هلمسيلف في نظريته من مفاهيم دي سوسير حول قضايا اللغة التي وردت في محاضراته، غير أنه دقق في عرضها بدرجة كبيرة من التجريد النظري، وصياغة المفردات والمصطلحات الجديدة، "فتقوم الجلوسيماتيك على النقد الحاد للسانيات السابقة التي تُدخل في تقنيات موضوعها أحداثا وظروفا خارجية عن اللسان نحو معرفة القضايا ما قبل التاريخ والتاريخية، والجوانب الفيزيائية والظواهر الاجتماعية والأدبية والفلسفية والسيكولوجية"¹²³.

كما حاولت هذه النظرية أن تتميز عن مدرسة براغ بتوظيفها لمفاهيم لغوية مختلفة مرتبطة بالمفاهيم المنطقية الرياضية، كما لم يكتف هلمسيلف بمجرد عرض لأعمال دي سوسير وشرحها على الصورة التي وردت في مؤلفه القيم (محاضرات في علم اللغة العام)، بل قام ببسط مفاهيمها والتدقيق في عرضها لصياغة نظرية بنيوية لسانية صارمة ذات توجه منطقي رياضي. فقد بدأ هلمسيلف في 1935 في تطوير نظرية الجلوسيماتيك التي أبدعها وأسسها، وهي نظام من القضايا والقواعد الأولية التي تتدرج ضمنها مفاهيم دي سوسير الأساسية عبر منهجية استنباطية دقيقة، وساعده في ذلك إلمامه باللغات قديمها وحديثها¹²⁴.

¹²⁰ انظر مبادئ اللسانيات البنيوية 116 .

¹²¹ أصول تراثية في علم اللغة 60 .

¹²² انظر مبادئ اللسانيات البنيوية 117.

¹²³ المدارس اللسانية 138.

¹²⁴ انظر الألسنية - علم اللغة الحديث - المبادئ والأعلام 246.

لويس هلمسيلف Lois Hjelmslev:

يعتبر هلمسيلف المؤسس والمنظر والناطق الأول باسم حلقة كوبنهاجن، حيث تقدم عام 1935 بنظرية جديدة حول الفونيم سماها بالنظرية الجلوسيماتيكية Glassematique ونشرها في كتاب صدر سنة 1943 بعنوان "مقدمات لنظرية في علم اللغة"، وهو من اللسانيين الأوائل الذين اهتموا بصورة جدية بالرياضيات والمنطق الرياضي والمنهجية العلمية¹²⁵. ولا غرو في ذلك فهلمسيلف نشأ في أسرة شهيرة بالعلوم، فقد كان لوالده الذي شغل منصب أستاذ الرياضيات، وتقلد رئاسة جامعة كوبنهاجن أثر عظيم في نبوغه في مجال اللسانيات.

التحق هلمسيلف بجامعة كوبنهاجن سنة 1916، وما إن فرغ من دراسته الجامعية حتى غادر وطنه طالبا للعلم والمعرفة في بعض بلدان العالم، فدرس بلتوانيا في عام 1921، وبراغ في عام 1932، ثم سافر بعد ذلك إلى باريس، وأقام هناك عامين كاملين من 1926 إلى 1927. واتصل خلال هذه الفترة بميلي Meillet وفندريس Vendryes، وتابع محاضراتهما في اللسانيات، كما تعرف على أفكار دي سوسير ومناهجه التي ساعدته على إرساء دعائم نظريته العالمية الجديدة (الجلوسيماتيك).

كما تأثر هلمسيلف بالمنطق الرياضي والمنهج العلمي السائد آنذاك، ولاسيما المنطق النمساوي لكارناب (Carnap). وهذا ما نلاحظه في الأسس العقلانية التي بنيت عليها نظريته. وقد توج عمله بمناقشة رسالة دكتوراه بعنوان "دراسات بلطيقية" في عام 1932. وبعد هذه الجهود التي بذلها في العلم والتحصيل المعرفي، شغل منصب أستاذ اللسانيات في جامعة كوبنهاجن، وظل يحاضر فيها حتى خلف بدرسن (Pedersen) سنة 1937 في كرسي اللسانيات المقارنة.¹²⁶

ومما لاشك فيه أن هلمسيلف يعتبر مدرسة بنيوية قائمة بذاتها، نظرا لتعمقه الجاد في آراء دي سوسير اللسانية، ومن ثم شق لنفسه طريقا أو (منهجا) أصبح لا يوصف إلا به وهو الجلوسيماتيكية¹²⁷. ومن مؤلفاته: (مبادئ النحو العام 1928) و(مقدمات لنظريات في علم اللغة 1934) و(اللغة 1963) إلى جانب مجموعة من المقالات اللسانية والتي نشرها عام 1953 بعنوان (Essais linguistiques) في مصنف تضمن خمسة عشر مقالا منها: (مقدمة إلى اللسانيات 1937)، و(اللسانيات البنيوية 1948)¹²⁸.

¹²⁵ انظر الألسنية – علم اللغة الحديث – المبادئ والأعلام 246، وانظر Giulio C. Lepschy, "La Linguistique Structurale", P: 81

¹²⁶ انظر اللسانيات، النشأة والتطور 157-158.

¹²⁷ انظر المدارس اللسانية 135.

¹²⁸ انظر المدارس اللسانية 137-138.

منهجية وطريقة هلمسيلف في التحليل (منهج الدراسة الجلوسيمية):

تعتبر النظرية الجلوسيمية التي أرسى مبادئها هلمسيلف تنظيرا آخر لدي سوسير¹²⁹؛ لأنه ركز في أعماله اللسانية على ما ورد في محاضرات دي سوسير من مفاهيم وآراء لسانية، انطلق منها ليضع أبحاثه ويستخلص نظريته الجديدة التي اشتهرت بمصطلحاتها الجديدة والغريبة، وأحيانا تميزت باستعمال مفردات قديمة في حلة جديدة، وهذا ما أكسبها شهرة واسعة بين الدارسين الأوروبيين والأمريكيين على السواء.

ولقد حاولت النظرية الجلوسيمية وصف الظواهر اللسانية وتحليلها وتفسيرها بطريقة علمية ورياضية منطقية، كما يقول هلمسيلف: "إنها تهدف إلى إرساء منهج إجرائي، يمكّن من فهم كل النصوص، من خلال الوصف المنسجم والشامل، إنها ليست نظرية بالمعنى العادي لنظام من الفرضيات، بل نظام من المقدمات المنطقية الشكلية، والتعريفات، والنظريات المحكمة التي تمكّن من إحصاء كل إمكانيات التأليف بين عناصر النص الثابتة"¹³⁰

وهذا يعني أن النظرية الجلوسيمية تهدف إلى وضع نظرية لسانية كلية من خلال اهتمامها بالمنطق الرياضي وبالمنهجية العلمية، ومن ثم فالموضوع الأساسي للدراسة اللسانية عند هلمسيلف هو دراسة بنية اللغة، وهذه الدراسة تكون باعتماد الشكلية، أي الطرق الرياضية البحتة، لذلك يرى هلمسيلف أن "الألسنية الحقيقية تولي بنية اللغة جل اهتمامها وتساهم عبر تركيزها على البنية في تكوين العلوم الإنسانية، فالنظرية اللغوية بنظره، تتوسل تحليل البنية (بنية اللغة) عن طريق اللجوء إلى مبادئ شكلية"¹³¹.

ولقد عمق هلمسيلف المنهج البنوي، عندما اعترف بأن نظريته لم تكن إلا امتدادا لما جاء به دي سوسير من مفاهيم لسانية في كتابه الشهير (محاضرات في علم اللغة العام)، وقام بفتح آفاق جديدة أمام الدراسات اللغوية المعاصرة، وعلى هذا الأساس يُعتبر يلمسيلف بمنهج هذا حلقة الوصل بين المدرسة البنوية والمدرسة التوليدية في أوروبا وأمريكا، فمن المستحيل فهم النظريات المعاصرة في دراسة اللغة فهما صحيحا - وخاصة المدرسة التوليدية - دون التعمق في فهم نظرية هلمسيلف.¹³²

من أهم المبادئ التي انطلق منها هلمسيلف في تحليلاته اللسانية ما يلي:

¹²⁹ انظر مبادئ اللسانيات البنوية 117.

¹³⁰ اللسانيات، النشأة والتطور 159-160.

¹³¹ الألسنية - علم اللغة الحديث - المبادئ والأعلام 247.

¹³² انظر المدارس اللسانية 141.

1- اعتماد مصطلحات خاصة وجديدة: تقوم المدرسة الجلوسيمية على مجموعة من المصطلحات، نظرا لصياغتها لمفردات جديدة، وإعادة استعمال بعض المفردات القديمة بحلة جديدة، بغية التميز والتجديد، وسنعرض بعض هذه المصطلحات على سبيل المثال لا الحصر: **جلوسيماتيك** Glossématique تدرس الجلوسيمات glossèmes أي الوحدات النحوية الصغرى التي لا تقبل التجزئة وتنقسم بدورها إلى قسمين: وحدات التعبير وتدعى **سوانم** cénemes . ووحدات المحتوى وتدعى **مضامين** plérèmes .

وقد استعاض هلمسيلف عن مصطلح phonématique بمصطلح **cenématique**، أما مصطلح **وظيفة** fonction فأصبح يدل على كل علاقة غير مادية مجردة وشكلية. كما استعاض هلمسيلف كذلك عن ثنائية (اللغة والكلام) لدي سوسير بثنائية أخرى أطلق عليها **النمط** (schema) و**النص** (tesct)، أو **الاستعمال** (usage).

كما استعمل هلمسيلف مجموعة من المصطلحات منها : **مستوى التعبير** (Escpression plane)، و**مستوى المضمون** (content plane)، و**النظام** (système)، و**النص** (tesct)، و**التحليل** (analysis)، و**المتغير** (variant)، و**التحفيز** (catalysis)، و**النمط** (schema)، و**الموظف** (Funcitive).¹³³

2- تأسيس نظرية لسانية وصفية علمية تقوم على مقدمات منطقية بديهية وعلى مبادئ معرفية منها:

أ - **مبدأ التجريبية**: اعتمد هلمسيلف في هذا المبدأ على الجمع بين ثلاث معايير أساسية: "اللاتناقض والشمولية والتبسيط"¹³⁴. ويرى أن الدراسة العلمية الموضوعية لا بد أن تقوم على احترام هذا المبدأ. وإن التراكيب المنطقية تقوم على قاعدة الجمع بين هذه المعايير على المناهج الإجرائية التي توفر الوصف الشامل لأي نوع من النصوص، دون أن يوجد تناقض بين الظواهر اللسانية، كما عليها أن تراعي أبسط وصف للوصول إلى النتائج.

ب- **مبدأ الإحكام والملاءمة**: تتميز النظرية الجلوسيمية بخاصتين أساسيتين هما: (الإحكام) الذي يعني الاعتبارية عند دي سوسير، و(الملاءمة)، و**الإحكام** عند هلمسيلف يعني الاتساق التام "أي تكون النتائج الطبيعية لأي قضية تابعة لمقدماتها المنطقية"¹³⁵، فلا بد أن تكون النظرية اللسانية مبنية على أسس منطقية

¹³³ انظر اللسانيات، النشأة والتطور 160.

¹³⁴ اللسانيات، النشأة والتطور 163.

¹³⁵ اللسانيات، النشأة والتطور 164 .

حتى يكون بالإمكان تطبيقها على نصوص لغوية. أما الملاءمة فتتمثل في أن تلبي مقدمات النظرية شروط التطبيق أي تكون ملائمة وقابلة للتطبيق على المعطيات التجريبية.

واعتمد هلمسيلف في منهجه لدراسة الظواهر اللسانية على الجمع بين التجريبية وبين المنهج الاستنتاجي أو الاستنباطي، الذي يراعي مبادئ التحليل الواقعي في دراسة اللغة، ويعتمد على مفاهيم المنطق والرياضيات في استنباط الجزء من الكل، ممثلاً في ذلك بالمنطق الرمزي (Logistique) كاستعماله للرموز الجبرية والقوانين الرياضية، محاولاً بذلك دراسة الظواهر اللغوية دراسة علمية على غرار العلوم الدقيقة، فحوّل اللغة العلمية إلى علم الجبر. ومن الرموز التي استعملتها: $LY^{\circ}g^{\circ}(V) R$ تدل على النص $Tesct$ و $LY^{\circ}g^{\circ}(V)$ التي تعبر عن النظام $Système$.

وكان هلمسيلف يهدف بوضعه لهذه الرموز - إلى وضع "لغة عليا" (Méta - Langue) تكون وسيلة منطقية من أجل التحليل العلمي للنظام اللغوي، والبحث الدقيق في علاقة وحداته، ووظائفها انطلاقاً من الإيمان بهيمنة الدراسة الصورية للغة واعتبارها مبدأً منهجياً حاسماً في اللسانيات البنيوية¹³⁶. كما حاول أن يضع نظرية شكلية عامة باستعمال العملية الترميزية ضمن ما يسمى بـ (تتضيد اللغة Stratification du Langage)¹³⁷.

3- لقد اعتبر هلمسيلف كلا من علمي الدلالة (Sémantique) والصوتيات (Phonétique) علميين مساعدين لعلم اللغة العام (اللسانيات) وليس فرعين أساسيين منه، لأنه كان ينوي الوصول إلى نظرية صورية منطقية تتعارض مع النظرية الذهنية Mentalistic والنظرية السلوكية Behaviorisme.¹³⁸

4- ركز هلمسيلف في تحليلاته اللسانية على دراسة بنية اللغة، هذه الدراسة التي تقوم على اعتماد الطرق الرياضية والمنطق الصوري، ولذلك يحدد البنية "بأنها نسيج من التعلقات Dépendance أو الوظائف (بالمفهوم المنطقي الرياضي للمصطلح)، وبناء على هذا التعريف يرى - كغيره من الوظيفيين - أن المحاولة الرئيسة للسانيات البنيوية تركز على دراسة الوظائف وأنواعها"¹³⁹. وهذا ما يبرر اهتمام هلمسيلف بالتحليل الوظيفي للوحدات اللسانية في ظل النظام البنيوي القائم على مجموع العلاقات التي تربط الوحدات أو (العناصر اللسانية). أو مجموع هذه البنيات هو الذي يكون النظام اللساني. واللغة - بهذا الاعتبار - شكل وليس جوهر،

¹³⁶ مبادئ اللسانيات البنيوية 128.

¹³⁷ انظر مبادئ اللسانيات البنيوية 128.

¹³⁸ انظر البنيوية في اللسانيات 237.

¹³⁹ مبادئ اللسانيات البنيوية 119.

وعلى ذلك فمهمة عالم اللسانيات هي إنشاء نظرية ذات نسق صوري يمتاز بالطابع الشكلي؛ ولذلك "يرى هلمسيلف أن اللسان ليس قائمة من المفردات، بل يكمن جوهره في العلاقات النسقية الموجودة بين وحداته".¹⁴⁰

وعلى هذا الأساس عمل هلمسيلف على ضبط ثنائية سوسير التي تفرق بين (اللغة والكلام) بما يكفي للإشارة إلى العلاقة الوظيفية التي تربط بينهما، حيث قام بضبط تصوره عن اللغة - باعتبارها الموضوع الأساسي لعلم اللسان - انطلاقاً من تحديده لثلاثة مفاهيم فرعية وهي:

أ- **الهيكل**: وهو يمثل اللغة كشكل صوري ونموذجي في الوقت نفسه.

ب- **القاعدة**: وتمثل اللغة كشكل مادي يستعمله المتكلم.

ج- **الاستعمال**: ويمثل اللغة كمجموعة من العادات الخاصة بالمتكلمين.¹⁴¹

لقد حاول هلمسيلف من خلال المفاهيم السابقة دراسة النظام اللغوي السوسري وفي مقدمتها ثنائية اللغة والكلام دراسة شكلية، حيث لم تكن هذه الدراسة في حقيقتها سوى امتداد لما جاء به دي سوسير من مفاهيم أساسية في الدراسات اللغوية، تهدف إلى دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها؛ ولذلك سعى هلمسيلف إلى توسيع مبدأ (اللغة شكل وليس مادة) فنظر إلى اللغة على أنها "كيان صوري"، وهذا الكيان يخضع لنسق من العلاقات الداخلية يمكن دراستها بنوع من المعادلات الجبرية اللغوية ... وهذا الشكل الصوري بعيد عن المظهر الدلالي".¹⁴²

وبناء على ذلك قام هلمسيلف بضبط تصوره للغة انطلاقاً من هذه المفاهيم الثلاثة التي تعني على التوالي: (الهيكل) أو (المخطط Shéma) ويعني النظر إلى اللغة من حيث هي صورة (أو شكل)، خالصة من مظهرها المادي وتحقيقاتها الاجتماعية، في حين يقصد بالمبدأ الثاني (القاعدة) أو (المعيار Norme): تحديد اللغة من حيث هي مظهر مادي في ظل تحقيقاتها الاجتماعية الخالصة، وأما المبدأ الثالث (الاستعمال Usage) فيقصد به النظر إلى اللغة من حيث تطبيقاتها الفعلية عند المتكلم، أي الانجاز الفعلي للغة في الواقع.

وللمزيد من التوضيح أستطيع الاستعانة بالجدول التالي:

¹⁴⁰ المدارس اللسانية 140.

¹⁴¹ انظر المدارس اللسانية 140.

¹⁴² أصول تراثية في علم اللغة 60.

دي سوسير	هلمسليف
1. اللغة	1. الهيكل / المخطط (Shéma)
2. الكلام	2. الاستعمال (Usage)
3. اللغة في شكلها المادي	3. القاعدة / المعيار (Norme)

5- يرى هلمسليف "أن الوحدة اللسانية سلبية بشكل خالص وعلائقية، وأنها تتحدد بكونها لا تستمد قيمتها من ذاتها ... بل من العلاقات التي تربطها بالوحدات الأخرى"¹⁴³. وهذا يعني الكف عن دراسة أجزاء اللغة، والاهتمام بدراسة العلاقات القائمة بين تلك الأجزاء. ولذلك عمد هلمسليف إلى دراسة الأصوات اللغوية - على سبيل المثال - من حيث هي أشكال وصور وأهمها من حيث هي مظاهر مادية خالصة.

6- يعتمد هلمسليف أيضا على المنهجية التجريبية المبنية على الملاحظة والاختبار ويحدد ثلاثة شروط يجب أن تخضع لها الدراسة اللسانية وهي: اللاتناقض، والشمول، وأقصى تبسيط ممكن.¹⁴⁴

7- وقد سمى هلمسليف تميز العلوم اللسانية عن الدراسات اللغوية وتفضيل هذه الأخيرة، ودراسة اللغة كموضوع اللسانيات بمبدأ المحايثة (L'immanence)¹⁴⁵ وهو نفس المبدأ السويسري القائم على إعداد اللغة الموضوع الحقيقي والوحيد للسانيات، والتركيز على دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها.

8- وبتفريق هلمسليف بين الشكل والمادة عمد إلى التفريق بين المضمون والتعبير فاستبدل ثنائية الدال والمدلول بثنائية (مستوى التعبير ومستوى المحتوى) وأكد أن اللغة تكون من تجمع هذين المستويين علاقة تُدعى العلامة اللغوية *Signe Linguistique*¹⁴⁶، والعلامة اللغوية علاقة تجمع بين الدال (مستوى التعبير) والمدلول (مستوى المحتوى).

¹⁴³ مبادئ اللسانيات البنيوية 119.

¹⁴⁴ انظر الألسنية - علم اللغة الحديث - المبادئ والأعلام 182.

¹⁴⁵ . 161 انظر اللسانيات - النشأة والتطور

¹⁴⁶ انظر اللسانيات - النشأة والتطور 162.

"ويتكون مستوى التعبير من الغطاء الصوتي أو الخطي للفكرة، ويتكون مستوى المحتوى من عالم الفكرة التي يعبر عنها في اللغة"¹⁴⁷، ومن ثم فمستوى التعبير هو عبارة عن مجموعة من الأصوات الخام، قد تكون مشتركة بين اللغات، أما مستوى المحتوى فتمثله مجمل مواضيع الفكر الإنساني، وكل مستوى يخضع بدوره لثنائية الشكل والمادة، فينتج عن ذلك المستويات الآتية:

أ- **شكل المحتوى أو المضمون:** وهو تقريبا ما أشار إليه دي سوسير بلفظ المدلول الذي اكتسب قالباً محدداً، ويقصد به أيضاً البنية المعجمية والتركيبية.

ب- **مادة المحتوى أو المضمون:** وتمثلها الأفكار، أي الواقع الخارجي كما هو قبل أن تتناوله اللغة بالبناء والتنظيم.

ج - **شكل التعبير:** ويقصد به الدال. وتهتم بدراسته الفونولوجية (أو علم وظائف الأصوات اللغوية).

د- **مادة التعبير:** ويقصد بها مجموعة الأصوات المنطوقة في شكلها المادي (مادة الأصوات) قبل أن تصوغها اللغة. وتهتم بدراستها الفونتيك.¹⁴⁸

ويمكن ملاحظة أن كل ما هو موجود في مادة التعبير ومادة المحتوى من مادة صوتية في الأولى، وأفكار في الثانية، يمكن أن تكون مشتركة بين سلسلة من اللغات، غير أن شكل التعبير وشكل المحتوى يختلفان من لغة إلى أخرى، على أن يمثل الأول الطرق التي تتوافق فيها الأصوات، ويمثل الثاني طرق ترتيب الأفكار الخاصة بكل لغة.

ويشير هلمسليف إلى وجود صلة بين شكل التعبير وشكل المحتوى تتمثل في مبدأ الاستبدال، فعملية الاستبدال بين النون والقاف في (قال - نال)، ينجم عنها تمييز في مستوى التعبير وهدف هلمسليف من هذا التقسيم هو التركيز على دراسة الجانب الصوري الشكلي للظواهر اللسانية، ويخلص هلمسليف إلى أن مادة التعبير وشكله هي موضوع دراسة الصوتيات، ومادة المحتوى وشكله هي موضوع دراسة علم الدلالة، وقد اعتبر هلمسليف أن علمي الصوتيات والدلالة علمين مساعدين وليسا من اللسانيات.¹⁴⁹

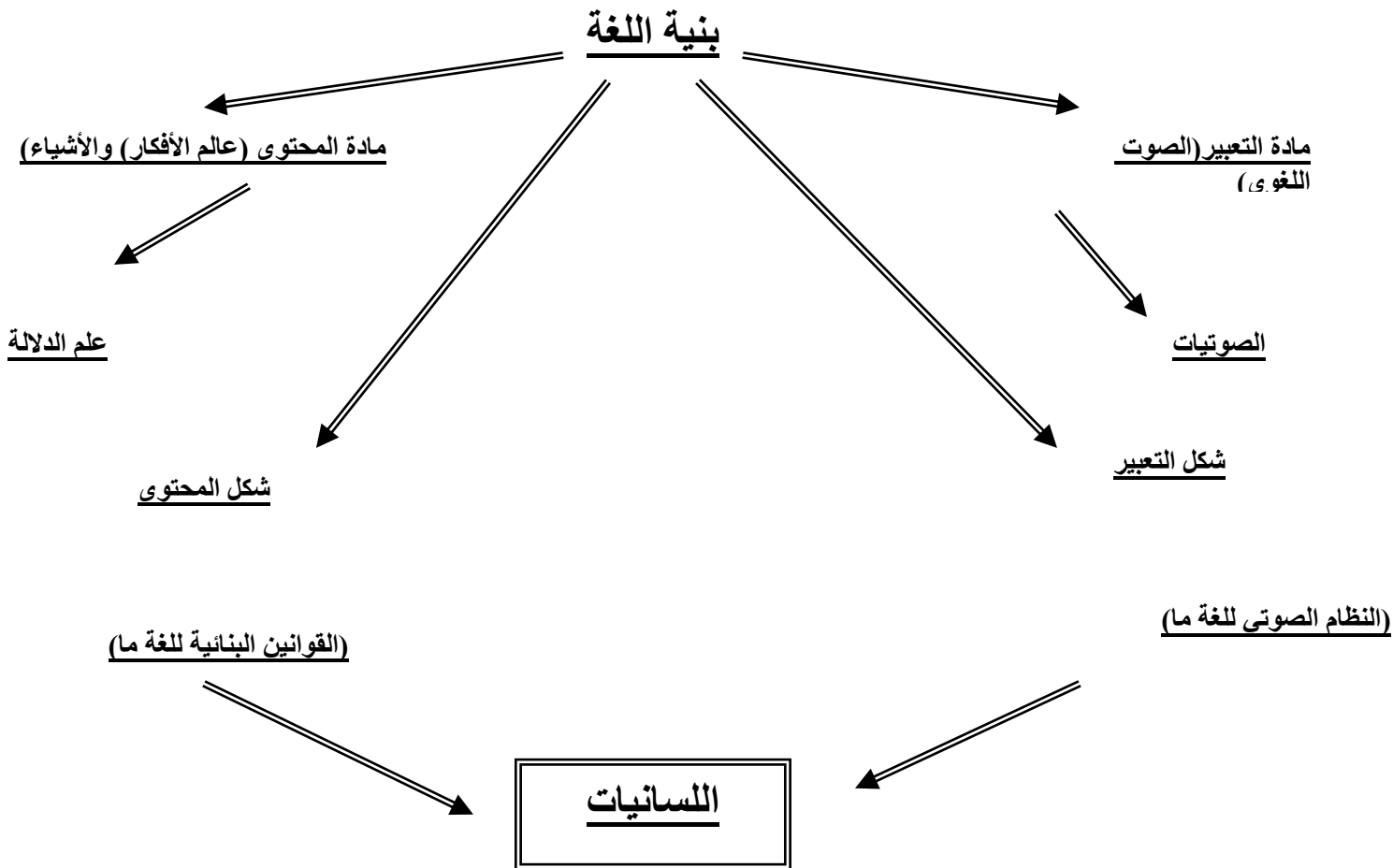
¹⁴⁷ الألسنية - علم اللغة الحديث - المبادئ والأعلام 248.

¹⁴⁸ 162-163. انظر اللسانيات - النشأة والتطور

¹⁴⁹ انظر مبادئ اللسانيات البنيوية 118.

9- ومن الجدير بالذكر، أن النظرية المقصودة في المنهج الجلوسيماتي، هي النظرية المنطقية التي تقوم على التحليل المنطقي، وبعبارة أخرى فالمنهج الجلوسيماتي "يهدف إلى أن يكون موضوع اللسانيات علما بحثا وفق تصورات حلقة فيّنا، أي: الفلسفة الوضعية المنطقية التي طورها أوجست كونت، والتي لا تدرس إلا الظواهر اليقينية مبتعدة عن كل تفكير تجريدي في الأسباب المطلقة"¹⁵⁰

فالمنهج الجلوسيماتي: هو ذلك المنهج القائم على بناء نماذج رياضية منطقية، تكون بمثابة نظريات كلية تشرح وقائع اللغات، وهو أيضا: المنهج الذي وحد بين مبادئ النحو التقليدية ومظاهر النظرية اللسانية الحديثة، وبين مسلمات المنطق الصوري والأسس المعرفية العامة



غير أن هذا المنهج "كان يمثل - في اللسانيات البنيوية بشكل عام وفي الجلوسيمية بشكل خاص - توجهها ابستمولوجيا جديدا، بإدخاله اللسانيات البنيوية مرحلة جديدة هي أشبه ما تكون بإعادة البناء والتأسيس، وجديدا

164. اللسانيات - النشأة والتطور¹⁵⁰

بإحيائه لبعض المفاهيم القديمة في المنطق والفلسفة، وجديدا بتميز تصوراته عن التصورات اللسانية السائدة بما فيها تصورات البنيويين أنفسهم¹⁵¹.

وهذا يدل على أن هلمسيلف قد عمل على تعميق أفكار دي سوسير في إطار البحث الجاد والدراسات المعمقة، التي اعتمد فيها على خطوات المنهج التجريبي القائم على مبدأ الاستقلال (Autonomy) الذي يتمتع به علم اللغة عن بقية المناهج العلمية الأخرى، وعلى خطوات هذا المنهج من ملاحظة وتجريب واستنتاج وفق مفاهيم المنطق والرياضيات. وبذلك فقد حدد هلمسيلف شروط الدراسة البنيوية اللسانية في ثلاثة مبادئ هي: اللاتناقض، والشمول، وأقصى تبسيط ممكن. وهذا ما دفع بالعديد من الباحثين إلى القول بأن "المعايير التجريبية - أو العقلية من باب أولى - لهلمسيلف كانت جديدة تماما بالنسبة للفلسفة وبالنسبة للمناهج اللسانية، حتى أن مصطلح "التجريبية" يبدو غريبا من حيث تطبيقه على مثل هذه المبادئ"¹⁵². ولعل السبب في هذا القول أو الاعتراف، يعود نتيجة لتطبيق هلمسيلف لهذه المعايير الثلاثة في الدراسات اللسانية واعتبارها قاعدة عامة تقوم عليها المنهجية التجريبية بدلا من الانطلاق من القاعدة التجريبية التي تمثلها المواد اللسانية (كما هو الشأن في المنهج التجريبي الاستقرائي).

10- الرؤية الشكلية السيميائية: اعتبر هلمسيلف في رؤيته الشكلية للدراسات اللغوية أن الأصوات اللغوية عبارة عن علامات تواصلية، وبذلك فلا يهم أن يكون مقابل المعنى صوتا أو كتابة أو أي نظام آخر ما دام المعنى عبارة عن وحدة تحمل وظيفة سيميائية. وبالتالي فهو يحاول إخضاع النظام اللغوي لمبادئ علم العلامات. فمن مميزات النظرية الجلوسيمية كما يرى هلمسيلف "اعتبار اللسان حالة خاصة في نظام سيميائي ... والسعي لوضع اللسانيات ضمن أطر لسيميائيات عامة Générale Sémiologie".¹⁵³

وهو بذلك يتفق مع دي سوسير في اعتبار اللسانيات فرعا من السيميائيات أو علم العلامات، ويرى هلمسيلف أن الوظيفة هي التي تكوّن العلامة (أي تلك التي تجمع بين الدال والمدلول)، كما فرّق في اللغة بين جانبها اللساني - وهو أحد مظاهر اللغة - وجانبها السيميائي، من حيث أن اللغة حقائق صورية تشمل أي نظام للعلامات، وبذلك فاللسانيات البنيوية - حسب رأيه - لا يمكنها الاستغناء عن اللغات غير اللسانية. لأنه

120. مبادئ اللسانيات البنيوية¹⁵¹

¹⁵² مبادئ اللسانيات البنيوية 121.

¹⁵³ مبادئ اللسانيات البنيوية 127.

بدراسته هذه الأخيرة ومقارنتها باللغات اللسانية تكتشف تميز اللغة الإنسانية عن غيرها. والحقيقة أن هلمسيلف لا يعد النظام اللغوي نظاما للعلامات، بل هو نظام لصور تملك وظيفة إبداعية لتشكيل علامات جديدة.

ونخلص إلى القول بأن هلمسيلف حاول توسيع المفاهيم السوسرية، وذلك في معالجة الظواهر اللسانية معالجة دقيقة على منوال العلوم الطبيعية والرياضية، أي بالاعتماد على النماذج الرياضية والمنطقية، وكذلك على المنهج التجريبي في دراسة جزئيات اللغة. فتعتبر دراسات هلمسيلف أول تعميق منهجي وعلمي لآراء دي سوسير اللسانية، وأول تطبيق للدراسات اللغوية باستخدام المناهج العلمية الرياضية، ولعل نتيجة لذلك كانت اللسانيات الرياضية.

وتعتبر النظرية الجلوسيمية من أبرز الأعمال اللسانية التي قُدمت خلال القرن العشرين، ذلك أنها قدمت تحديدا دقيقا للغة، واعتبرتها ميدانا علميا رياضيا بحثا يقوم على المناهج العلمية المطبقة في العلوم الطبيعية والرياضية، يقول هلمسيلف: "إن المقصود باللغويات البنيوية هو مجموع الأبحاث التي تستند إلى فرض واحد مؤداه أنه من المشروع علميا وصف اللغة باعتبارها أولا وبالذات كيانا مستقلا من العلاقات الباطنية التي يتوقف بعضها على البعض الآخر، أعني - بكلمة واحدة - (بنية)"¹⁵⁴ فلهلمسيلف يعتبر البنية كيانا صوريا يمثل منظومة من العلاقات الباطنية.

ورغم الأهمية العلمية لهذه النظرية إلا أنه يؤخذ عليها أنها أوغلت في التجريد والتصنيف دون أن تقدم علميا ما يعطيها أهمية في ميدان التطبيق، كما أنها أقصت المادة الصوتية التي لا يتم التحليل إلا بها، وعجزت عن دراسة اللغات غير المعروفة أو التي لم تعرف، يقول إبراهيم زكريا: "والمأمل في بنيوية هلمسيلف اللغوية، يلاحظ : أولا وقبل كل شيء أنها عبارة عن عملية بناء، أو إنشاء "نموذجي منطقي" في اللغة من جهة، ولجهاز بأكمله من التعريفات من جهة أخرى، أكثر مما هي نظرية علمية أريد لها أن تكون أداة لاكتشاف معالم "العالم اللغوي".¹⁵⁵

ورغم كل هذا، يبقى القول أن مفاهيم هلمسيلف قد أسست لمنهج علمي جديد في دراسة الظواهر اللغوية، وأحدثت بذلك ثورة على طرق معالجة النظام اللغوي السابقة لها. ذلك أن المعرفة الدقيقة للمبادئ والنظريات

¹⁵⁴ مشكلة البنية 69.

¹⁵⁵ مشكلة البنية 61.

اللسانية البنيوية لم يكن ليصل إلى كنهها اللسانيون المعاصرون من دون قراءة فعالة لأعمال اللساني الأول " هلمسيلف"، ومهدت كذلك للمفاهيم والمبادئ التي نادى بها وأرسى قواعدها التوليديون.

الخاتمة:

1- المناهج اللغوية الغربية الحديثة ليست غريبة عن علماء اللغة العرب قديما فقد عرف العرب القدماء هذه المناهج - باستثناء المنهج التقابلي - لكنهم خلطوا فيما بينها وهم معذورون في ذلك فلم تكن لديهم التقنيات الحديثة ولا المعامل التجريبية المتوفرة في العصر الحديث، فجاءت دراساتهم معتمدة على الذوق والحس المرهف وعمق الاستقراء؛ لذا يجب أن نشتم ما خلفوه لنا من جهد جهيد لا يمكن أن نستغني عنه أو نتغافله على مر الأزمان.

2- إن الدراسات اللغوية عند القدماء، على الرغم من امتدادها في القدم تبقى ركيزة تنطلق منها كل محاولة لدراسة اللغة العربية وتفسيرها وفهمها، فبعث التراث العربي وإحيائه من جديد واستقرائه يسمح لنا بالوصول إلى نتائج مهمة تضع أقدامنا على بداية الطريق لفهم الدراسات اللغوية الحديثة.

3- إن النظريات الحديثة أسهمت في الدفع بالدراسات اللغوية العربية الحديثة إلى الأمام نتجت عنها حركة تجديد أبرزت مدى تغلغل هذا العلم في ذهن اللغويين العرب، وكشفت عن الخطوات التي استطاعت من خلالها أن تضمن لنفسها مكانا ضمن النشاط اللغوي العالمي.

4- إن مناهج الدرس اللغوي الحديثة سهّلت على الباحثين وقصّرت عليهم الطريق للوصول إلى الغاية المنشودة من البحث العلمي وجعلت النتائج أكثر دقة وتتميز بالشمول واليقين والموضوعية، ولكن نظرا لطبيعة لغتنا العربية وارتباطها بالقرآن الكريم، وأن لها طرفا خاصا عن بقية اللغات، فلا بد من فهم الدراسات التراثية أولا قبل الغوص في النظريات والمناهج الحديثة، حتى لا نُفتتن بما جاء به المحدثون وننسى جهود علمائنا القدامى، ونهضم حقهم علينا.

5- أرى أن الدراسات اللغوية الحديثة قامت على قواعد الدراسات التراثية عند العرب، ولا أستبعد أن المحدثين من علماء اللغة الغربيين قد اطلعوا على ما خلفه علمائنا من دراسات تراثية في فروع اللغة واستفادوا منها في بناء نهضتهم العلمية التي نعيشها في العصر الحديث.

المصادر والمراجع

- 1- اتجاهات البحث اللساني، لمليكا إفينش، ترجمة سعد مصلوح ووفاء كامل، المركز الأعلى للثقافة، الطبعة الثانية، 2000م.
- 2- الاتجاهات اللسانية، مدخل إلى اللسانيات، لمحمد محمد يونس، دار الكتاب الجديد، بلا تاريخ.
- 3- أصول تراثية في علم اللغة، لكريم زكي حسام الدين، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، بلا تاريخ.
- 4- الألسنية، علم اللغة الحديث، المبادئ والأعلام، لمشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت 1983م.
- 5- أهم المدارس اللسانية، لعبد القادر المهيري وآخرين، المعهد القومي لعلوم التربية، ط2، تونس، 1990م.
- 6- أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، للدكتور حسام البهنساوي، دار المناهل للطباعة، القاهرة 1994م.
- 7- البحث اللغوي عند العرب، لأحمد مختار عمر، عالم الكتب، 1998م.
- 8- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1997م.
- 9- البنيوية في اللسانيات، لوفاء كامل، عالم الفكر، بلا تاريخ.
- 10- الخصائص، لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، 1952م.
- 11- الزينة في الألفاظ الإسلامية، لأحمد بن حمدان، تحقيق الهمزاني، القاهرة، 1957م.
- 12- صاحب في فقه اللغة، لأحمد بن فارس، تحقيق مصطفى الشويمي، بيروت، 1963م.
- 13- الظواهر الدلالية والمعجمية عن الدكتورة بنت الشاطي، لنادية رمضان النجار، القاهرة، 2003م.
- 14- العربية وعلم اللغة الحديث، لمحمد محمد داود، دار غريب، 2001م.
- 15- علم اللغة، لعلي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، الطبعة السابعة، القاهرة، 1972م.
- 16- علم اللغة العربية، مدخل تاريخي مقارنة، في ضوء التراث واللغات السامية، لمحمود فهمي حجازي، دار الثقافة العربية، القاهرة، بلا تاريخ.
- 17- العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق عبد الله درويش، بغداد، 1967م.
- 18- فردينان دي سوسير، تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات، لجونثان كلر، ترجمة محمود حمدي عبد الغني، المجلس الأعلى للثقافة 2000م.
- 19- فصول في الدرس اللغوي بين القدماء والمحدثين، لنادية رمضان النجار، دار الوفاء، الإسكندرية، 2006م.
- 20- فقه اللغة في الكتب العربية، لعبده الراجحي، بيروت، 1972م.

- 21- في المناهج اللغوية وإعداد الأبحاث، لصالح بلعيد، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر 2005م.
- 22- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.
- 23- اللسانيات، النشأة والتطور، لأحمد مؤمن، ديوان المطبوعات الجامعية، بلا تاريخ.
- 24- اللغة بين المعيارية والوصفية، لتمام حسان، دار المعرفة، الإسكندرية، 1989م.
- 25- مبادئ في اللسانيات، لخوله طالب الإبراهيمي، دار القصة للنشر، الجزائر، 2000م.
- 26- مبادئ اللسانيات البنوية، للطيب دبة، جمعية الأدب للأساتذة الباحثين، 2001م.
- 27- محاضرات في علم اللغة الحديث، لأحمد مختار عمر، عالم الكتب، 1995م.
- 28- محاضرات في علم اللغة العام، لأحمد عزت البيلي، دار الثقافة العربية، 1990م.
- 29- مدارس اللسانيات، التسابق والتطور، لجفري سامسون، تعريب محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود 1417هـ.
- 30- المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، لمحمد الصغير بناني، دار الحكمة، الجزائر، بلا تاريخ.
- 31- مدخل إلى علم اللغة، لمحمد حسن عبد العزيز، دار الفكر العربي، 1998م.
- 32- مشكلة البنية، لإبراهيم زكريا، مكتبة مصر، القاهرة، بلا تاريخ.
- 33- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، لرمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، القاهرة، 1982م.
- 34- المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار، دار الدعوة للنشر، القاهرة، بلا تاريخ.
- 35- مقدمة في علم اللغة، لمحمد حبلص، دار الثقافة العربية 1997م.
- 36- من أسس علم اللغة، لمحمد حبلص، دار الثقافة العربية، 1997م.
- 37- مناهج البحث في اللغة والمعاجم، لعبد الغفار حامد هلال، القاهرة، 1991م.
- 38- مناهج البحث اللغوي، لمحمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، 2000م.
- 39- الموجز في تاريخ علم اللغة، لروبنز، ترجمة أحمد عوض، عالم المعرفة، الكويت، 1997م.
- 40- النظرية اللغوية في التراث العربي، لمحمد عبد العزيز عبد الدايم، دار السلام للنشر والتوزيع، 2006م.